سيغموند فرويد

التحليل النفسي لرهاب الأطفال

(هانز الصغير)

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة – بيروت

هذا الكتاب

يستمد هذا النص أهميته من أنه أول تقرير ينشره مؤسس التحليل النفسي في تحليل الاطفال . فمن قبل ، كان علم النفس يبدو وكأنه قاصر على الراشدين . ومع حالة « هانز الصغير » ، انفتح ذلك الحقل الفسيح البعيد الاغوار الذي هو التحليل النفسي للاطفال . وليس الجانب التقني هو المهم في هذا النص ، وانما الجانب النظري . فقد أقام تحليل الاوديبي الصغير هانز الدليل على صحة القضايا الكبرى للتحليل النفسي ، وفي المقام الاول عقدة الخصاء . والجنسية الطفلية وازدواجية الحب والكره . وهذا بالاضافة الى ان هذا النص ينطوي على أول محاولة لفهم رهاب الاطفال ، الكثير الشيوع على ضوء معطيات غير تقليدية .

انه كتاب برسم الاباء والامهات ، كما هو برسم القارىء المختص في التحليل النفسي .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٨ ل. ل.
او ما يعادلها

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

سيغموند فرويد

التحليل النفسي لرهاب الأطفال

(هانز الصغير)

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

**ANALYSE D'UNE PHOBIE CHEZ
UN PETIT GARÇON DE 5 ANS
(LE PETIT HANS)
(1909)**
PAR
SIGMUND FREUD

**IN
CINQ PSYCHANALYSES
PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE**
PARIS 1954

تقديـــم

يستمد هذا النص اهميته من أنه أول تقرير ينشره فرويد عن **تحليل طفلي** .

فقد كان لهانز من العمر اربع سنوات وثمانية أشهر حينما أصيب في مطلع عام ١٩٠٨ برهاب حاد PHOBIE من الجياد . وكان والدا هانز من مريدي فرويد ، وكان هذا الاخير قد عالج الام ، كما كان الأب من المترددين على محاضراته ومن القارئين لمؤلفاته . وقد ظهرت حالة الرهاب لدى هانز بعد بضعة أشهر من ميلاد اخت له سميت آنا . وتبدى رهابه في إبائه الخروج خوفاً من أن يعضه في الطريق حصان .

كان هانز طفلاً ذكياً ، وكان والداه قد عملا على تربيتـه تربية « حرة » دون قسر ولا اكراه بقدر الامكان . وكان لديه نهم كبير الى المعرفة ، ولا يتوقف عن طرح الاسئلة . وكان قبل اصابته بالرهاب قد أثار بسرعة ملاحظته وحب استطلاعه إعجاب فرويد . فاستشهد ببعض اقواله وملاحظاته التي تنم عن تبكير الاطفال الى « الاهتمام بألغاز الحياة الجنسية » في مقال نشره عام ١٩٠٧ عن « الشروح الجنسية التي تعطى للاطفال »[(١)] ، مؤكداً انه « صبي صغير مدهش » . وقد رفض

---

(١) انظر ترجمتنا لهذا النص في كتاب «الحياة الجنسية»، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٢.

فرويد في حينه ان يعزو حب الاستطلاع الجنسي لدى هانز الى « احتمال ان يكون طفلاً شهوانياً أو حتى ذا استعداد مسبق للمرض » ، واكد على العكس ان هانز يتميز عن غيره من الاطفال بكونه لا يرزح ، بالنظر الى سماحة والديه في تربيته ، « تحت وطأة الاحساس بالذنب » ؛ فهو « يكاشفنا من ثم بسذاجة وبراءة بما يدور في فكره » .

لكن لم تمض أشهر معدودة على توكيد فرويد هذا حتى كان هانز اصيب برهاب الجياد الذي سيخلد اسمه في تاريخ حركة التحليل النفسي .

والد هانز هو الذي تولى تحليله وعلاجه تحت إشراف فرويد . ولم يتدخل هذا الاخير بصورة مباشرة في مجريات التحليل إلا مرة واحدة . ومع أن والد هانز لم يكن محللاً نفسياً مدرباً ، فقد نجح العلاج نجاحاً تاماً ، وشفي هانز من رهابه بعد أربعة أشهر من بدء تحليله . ومما ساعد على اختصار المسافة الزمنية أن والد هانز كان دوَّن ملاحظات مفصلة عن سلوك هانز قبل أن يتم عامه الثالث . وعندما ظهر لدى الصبي الصغير رهاب الجياد بعد زهاء سنتين ، قامت تلك الملاحظات المدونة من قبل الأب مقام التقرير عن تاريخ الحالة .

على الرغم من النجاح الذي تكلل به العلاج ، ظل فرويد مقيماً يومئذ على اعتقاده بأن التحليل النفسي للاطفال غير قابل للتعميم . وبالفعل ، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يتدخل فيها فرويد في مضمار العلاج التحليلي الطفلي ، وبوساطة والد الطفل أصلاً . وكان لا بد للتحليل النفسي ان ينتظر مساهمات آنا فرويد ـ ابنة مؤسس المذهب ـ وميلاني كلاين وغيرهما كيما ترى النور تقنية متطورة وناجعة في تحليل الاطفال .

اذن ليس الجانب التقني هو المهم في هذا النص ، وانما الجانب النظري ان جاز القول . وبالفعل ، إن حالة هانز الصغير اقامت الدليل على صحة القضايا الكبرى للتحليل النفسي ، وفي المقام الأول عقدة أوديب ، وعقدة الخصاء ، والجنسية الطفلية ، والنظريات الطفلية

الجنسية . وبهذا المعنى ، كان تحليل حالة هانز الصغير بمثابة تطبيق عملي لنظريات فرويد في كتابه الطليعي **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، مثلما كان تحليل حالة دورا من قبل تطبيقاً للنظريات التي تضمنها الكتاب العظيم الأول لمبتدع التحليل النفسي : **تفسير الاحلام** .

واستكمالاً لفائدة القارىء من مطالعة هذا النص تجدر الاشارة الى واقعتين : اولاهما ان فرويد نفسه سيعود الى تحليل حالة هانز الصغير في نصوص أخرى ، كما في كتابه **الكف** ، **العرض الحصر** الذي أصدره عام ١٩٢٦[٢] ، وثانيتهما أن العديدين من نقاد فرويد اعترضوا على تحليله لحالة هانز الصغير وتقدموا لها بتفاسير وتآويل اخرى ، من داخل النظرية التحليلية النفسية ومن خارجها على حد سواء . وربما كان من اكثر نقاده جذرية اريك فروم الذي خصص فصلاً بكامله من كتابه **أزمة التحليل النفسي** ليعيد تحليل حالة المريض الصغير من منظور مغاير لمنظور فرويد ، ولكن من دون أن يخرج مع ذلك على المعطيات الاساسية للتحليل النفسي . وخلاصة رأي اريك فروم أن فرويد أخفق في فهم حالة « الاوديبي الصغير » لأن موقفه من المجتمع البورجوازي ، الذي يمثله والدا هانز ، هو « موقف النقد الليبيرالي لا الجذري » . إذ كان كل هدفه تحسين طرائق التربية والتخفيف من درجة القسوة في المناهج التربوية ، دون ان يصل به الأمر الى نقد الاسس القمعية للتربية البورجوازية . ففرويد ارتأى أن تربية هانز العائلية تكاد تكون مثالية ، وأن والديه كانا سموحين في تربيته إلى أقصى حد ممكن. والحال أن ما غاب عنه هو أن العنف غير غائب على الاطلاق عن هذه التربية ، ولا كذلك الكذب ؛ وقد بلغت لغة العنف بأمه انها هددته بالخصاء فعلاً ، ولغة الكذب انها ادعت انها تملك قضيباً حقاً . ومن ثم فان هانز لم يكن معصوباً اوديبياً صغيراً يشتهي أمه ويكره أباه ، بل يكاد العكس ان

(٢) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ .

يكون هو الصحيح : فهانز يخشى أمه ويلتمس عند ابيه الحماية . لكن فرويد ، المفعم بنزعته الابوية كما يرى إ. فروم ، ما استطاع ان يتصور أن تكون المرأة هي « السبب الحقيقي للخوف » وليست مجرد موضوع للحب . وحتى دور فرويد في القصة كلها لم يكن دور المحلل الذي يميط اللثام عن أسرار، بقدر ما كان دور «أب أعلى» ـ **الأستاذ** كما يسميه هانز نفسه ـ يوجه ويوحي بالأسرار التي يريد أن يكشفها .

إن هذا النقد لا يخلو من وجاهة . والشاهد يقدمه المآل الذي انتهت إليه تلك الأسرة « المثالية » : فخلافاً لكل ما هو متوقع من الزوجين « المحبين » ، انتهت العلاقة بينهما بالطلاق .

ولكن حتى ولو كان خوف هانز من الخصاء مبعثه الأم لا الأب ، أي لو ثبت أن **الأمهات** ، لا الآباء ، هن المنبع الاعمق للمشاعر الرهابية عند الاطفال ، وأن دورهن في الحياة النفسية ليس سلبياً الى الحد الذي يطيب للنزعة الابوية ان تتصوره ، فإن مأثرة فرويد الكبرى ـ التي لا ينكرها عليه فروم أصلاً ـ هي انه كان كوبرنيك النفس البشرية ، وأنه مع الثورة التحليلية النفسية صار للسيكولوجيا تاريخ بعد ان كانت من قبل غارقة في دياميس ما قبل التاريخ . وبديهي ان التحليل النفسي ليس غير قابل للنقد ، ولكن من منطلقه فحسب يمكن ان يكون النقد فعالاً ، فيحول دون انحطاط الفرضيات الى مسلمات ، ويسهم في الكشف عن مزيد من وجوه التعقيد والغنى في قوانين الاعماق النفسية .

ج. ط

(١)
مــدخــل

ان ما تتضمنه الصفحات التالية من وصف لتاريخ المرض والشفاء لدى مريض جد صغير لا ينبع ، بحق معنى الكلمة ، من ملاحظتي الخاصة . صحيح أنني وضعت الخطوط الكبرى للعلاج ، بل تدخلت شخصياً لمرة يتيمة في أثناء محادثة مع الصبي الصغير ؛ لكن العلاج ذاته اضطلع به أبو الطفل الذي أدين له بعرفان كبير **لأنه** وضع في متناولي ملاحظاته وأباح لي نشرها . والحق ان فضل الأب لا يقف عند هذا الحد : فما كان لأي شخص سواه ، في رأيي ، أن يتوصل الى الفوز من الصبي بمثل هذه الاعترافات ، وقد كانت المعارف التقنية ، التي بفضلها استطاع الأب تأويل أقواله ابنه الذي في الخامسة من عمره ، لازمة لا غنى عنها ؛ فلولاها لاستحال التغلب على الصعوبات التقنية التي تعترض سبيل التحليل في مثل هذه السن الصغيرة . واجتماع السلطة الابوية والسلطة الطبية في شخص واحد ، فضلاً عن جمع هذا الشخص بين الاهتمام الذي يمليه عليه الحب والاهتمام ذي الطابع العلمي ، هو وحده الذي أتاح في الحالة التي نحن بصددها امكانية تطبيق المنهج على نحو ما كان ليصلح له بغير ذلك .

على أن القيمة الخاصة لهذه الحالة تكمن في ما يلي : فالطبيب الذي يعالج بالتحليل النفسي معصوباً راشداً يتوصل ، عن طريق كشف

التشكيلات النفسية المتناضدة طبقة فوق طبقة ، الى فروض معينة عن الجنسية الطفلية التي يتراءى له أنه اهتدى بين مقوِّماتها ومكوناتها الى الدوافع الدينامية لجميع الاعراض العصابية في طور لاحق من الحياة . وقد عرضت هذه الفروض في كتابي **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس**[1] ؛ وانا اعلم أنها تبدو مدهشة للقارىء غير المختص بقدر ما تبدو غير قابلة للدحض في نظر المحلل النفسي . لكن حتى المحلل النفسي قد تساوره الرغبة في العثور على برهان أقرب الى ان يكون مباشراً ، يتم الوصول اليه بطرق أقصر ، على تلك القضايا الإساسية. أفمن المستحيل ان يتأتى لنا ان نلاحظ بصورة مباشرة لدى الطفل ، وبكامل النضارة الحية ، تلك الحفزات الجنسية وتلك التشكيلات التي تبنيها الرغبة والتي ننقب عنها ببالغ العناء لدى الراشد وننتشلها من بين أنقاضها وردومها ، فضلاً عن اننا نرى أنها ميراث مشترك بين البشر قاطبة وان كانت لا تتظاهر لدى مرضى الاعصاب إلا معززة أو محرفة .

سعياً وراء هذا الهدف كنت ، منذ سنوات عديدة ، أحث تلامذتي وأصدقائي على تجميع ملاحظات عن حياة الاطفال الجنسية التي يغمض الناس أعينهم عنها بحذق في العادة أو ينكرونها عن عمد وقصد . وبين جملة المواد التي حصلت عليها عن هذا الطريق ما لبثت التقارير ، التي كانت تردني بصورة منتظمة ، عن هانز الصغير ان تبوأت مكانة الصدارة . فقد كان والداه كلاهما من أقرب المريدين إلي ، وكانا اتفقا على تنشئة طفلهما الأول بلا قدر من الاكراه اكثر مما تستلزمه عند الاقتضاء ضرورة السلوك الحسن . وبما ان الطفل كان يتحول ، مع نموه ، الى صبي صغير طيب ويقظ ، فإن تجربة تركه يكبر ويشب عن الطوق بعيداً عن كل تخويف وترهيب كانت تمضي قدماً الى الامام على نحو يبعث على الرضى . وسأشرع الآن بسرد تقارير الأب عن هانز الصغير

(١) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م » .

كما وصلتني ، وسأمتنع بطبيعة الحال عن كل محاولة من شأنها ان تنال من سذاجة الطفولة وصدقها بتعديلات متعارف عليها .

يرجع تاريخ التقارير الأولى عن هانز الى يوم لم يكن قد اكمل بعد عامه الثالث . فقد كان يبدي يومئذ ، من خلال أقوال واسئلة شتى ، اهتماماً جامحاً بذلك الجزء من جسمه الذي اعتاد أن يسميه « فرفورته »[2] وقد طرح يوماً على أمه هذا السؤال :

هانز : هل عندك انت ايضاً فرفورة ؟

الام : بالطبع . لماذا ؟

هانز : فكرت فقط ...

وفي تلك السن نفسها دخل يوماً الى اصطبل ووقع نظره على بقرة تحلب ، فقال :

ـ انظر ، من فرفورتها يخرج حليب .

من هذه الملاحظات وحدها، لا غير، يسعنا أن نتوقع أن الكثير مما سنراه عند هانز الصغير ، بله أغلبه ، سيكون نمطياً من منظور النمو الجنسي للاطفال بصورة عامة . وكنت أوضحت في غير هذا الموضع[3] أنه لا يجوز لنا ان نغلو في الاستفظاع متى ما التقينا لدى كائن من الجنس المؤنث بفكرة مص عضو الذكورة. فهذه الحفزة الجارحة للمشاعر لها أصل في غاية من البراءة ، لأنها مشتقة من مص ثدي الأم ؛ ويلعب هنا ضرع البقرة ـ الذي هو بطبيعته ثدي وبشكله وموقعه قضيب ـ دوراً وسيطاً موائماً . ويؤكد اكتشاف هانز الصغير الجزء الاخير من وجهة نظري .

غير ان الاهتمام الذي يوليه للفرفورة لم يكن نظرياً خالصاً؛ فكما

(٢) بالالمانية WIWIMACHER ، وبالفرنسية FAIT - PIPI ، وبالعربية يقال ايضاً « حمامة » . « م » .

(٣) **نبذة من تحليل حالة هستيريا** (انظر ترجمتنا لهذا النص بعنوان **التحليل النفسي للهستيريا** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م ») .

كان لنا ان نتوقع ، كان هذا الاهتمام يحفزه على ملامسة عضوه . وفي الثالثة والنصف من عمره ضبطته أمه ويده تعبث بقضيبه . فهددته قائلة : « اذا فعلت ذلك ، فسأستدعي الدكتور أ ليقطع لك فرفورتك .

وعندئذ بأي شيء تفرفر ؟

هانز : بطزطوزتي .

أجاب بذلك بدون شعور بالذنب بعد ، ولكنه اكتسب بتلك المناسبة « عقدة الخصاء » التي لا نجد مناصاً في غالب الاحيان من المصادرة على وجودها في تحاليلنا لمرضى الاعصاب ، وان أبوا بعنف الاقرار بها . وثمة أشياء كثيرة كان يمكن ان نقولها بصدد دلالة هذا العنصر في تاريخ الطفل . وقد تركت « عقدة الخصاء » آثاراً بارزة في الاساطير (وليس فقط في الاساطير الاغريقية) ؛ وقد أشرت في كتابي **تفسير الاحلام** ، وفي مواضع اخرى ، الى الدور الذي تضطلع به هذه العقدة(٤) .

(٤) (حاشية أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ منذ أن كتبت ذلك طرأ على النظرية الخاصة بعقدة الخصاء توسيع مرموق بفضل مساهمات لو اندرياس LOU ANDREAS ، وأ. شتاركه STARKE ، وف . ألكسندر ALEXANDER ، وآخرين . وقد جرى التنويه بأن الرضيع يستشعر سحب ثدي الام في كل مرة خصاء ، أي فقداناً لجزء هام من جسمه بالذات ، جزء يشعر أن له عليه حقوقاً ، وبأنه لا يسعه من الجهة الثانية إلا أن يستشعر على النحو نفسه فقدانه المنتظم لبرازه ، وبأن الميلاد أخيراً ، أي الانفصال عن الام التي كان يؤلف وإياها الى ذلك الحين كلاً واحداً ، هو النموذج الاول لكل خصاء . ومع إقراري بوجود جميع هذه الجذور للعقدة ، فقد كان رأيي أن مصطلح عقدة الخصاء ينبغي قصره على الاثارات والنتائج المرتبطة بفقدان القضيب . وكل من اقتنع ، وهو يحلل الراشدين ، بوجود منتظم ودائم لعقدة الخصاء ، فسيكون عسيراً عليه بطبيعة الحال أن ينسبها الى تهديد عابر ، علاوة على أنه ليس مما يتكرر حدوثه بعمومية مطلقة : بل لن يجد مفراً أمامه من الافتراض بأن الطفل يبني لنفسه هذا الخطر بدءاً من أبسط التلميحات ، وهي التي لا ينعدم وجودها أبداً . وهذا هو أيضاً الدافع الذي حمل على البحث عن الجذور الاكثر عمقاً لهذه العقدة ، وهي الجذور العامة الوجود . وان يكن التهديد بالخصاء في حالة هانز الصغير قد صدر عن الوالدين نفسيهما ، وفضلاً عن ذلك ، في زمن لم يكن فيه الرهاب قد تكوَّن بعد لدى الطفل ، فهذا من شأنه أن يسبغ عليه مزيداً من الاهمية .

وفي تلك السن عينها (السنة الثالثة والنصف) ، هتف هانز في شونبرون(٥) ، وهو يقف امام قفص الأسد ، جذلاً مهتاجاً :

ـ رأيت فرفورة الأسد !

ان الحيوانات تدين بجانب غير قليل من الأهمية التي تسبغها عليها الاساطير والحكايا الخرافية للطريقة المكشوفة التي تظهر بها اعضاءها التناسلية ووظائفها الجنسية امام الطفل البشري الصغير الذي يتأكله الفضول وحب الاستطلاع . وليس ثمة من ريب يحوم حول حب الاستطلاع الجنسي لدى صغيرنا هانز ، غير أنه جعل منه باحثاً منقِّباً وهيأه للوصول الى معارف مجردة حقيقية .

فقد رأى مرة في المحطة ، وكان له من العمر ثلاث سنوات وتسعة أشهر ، قاطرة يسيل منها ماء . فقال :

ـ انظر ، القاطرة تفرفر . فأين اذن فرفورتها ؟

وبعد هنيهة أضاف بلهجة المستغرق في التفكير :

ـ ان للكلب والحصان فرفورة ، والطاولة والكرسي لا فرفورة لهما .

وبذلك يكون قد وضع يده على خاصية أساسية لتمييز الحي من الجامد .

ان الظمأ الى المعرفة يبدو لصيق الصلة بحب الاستطلاع الجنسي . وكان حب الاستطلاع لدى هانز ينصب في المقام الأول على أبويه .

هانز (في السنة الثالثة والشهر التاسع) : بابا ، هل عندك انت ايضاً فرفورة ؟

الأب : نعم ، بالطبع .

(٥) شونبرون : حي في فيينا ، فيه قصر كان يقيم فيه آل هابسبورغ ، وكذلك حديقة للحيوان . « م » .

هانز : لكنني لم أرها قط حينما تخلع ثيابك .

وفي مرة اخرى حدق ، وكله انتباه ، في أمه وهي تخلع ملابسها قبل أن تذهب الى النوم . فسألته :

ـ الى ماذا تنظر هكذا ؟

هانز : أنظر فقط لأرى ان كانت لك فرفورة .

الام : بالطبع . أما كنت تعرف ذلك ؟

هانز : كلا ، كنت افكر انك ما دمت كبيرة الى هذا الحد ، فلا بد ان تكون لك فرفورة مثل الحصان .

ان هذا التوقع من هانز الصغير جدير بأن نلاحظه ، فسيكتسب اهمية فيما بعد .

غير ان الحدث الاكبر في حياة هانز كان ميلاد أخته الصغيرة آنا ، عندما كان له من العمر ثلاثة اعوام ونصف عام بالضبط (ولد في نيسان ١٩٠٣ وولدت اخته في تشرين الأول ١٩٠٦) . وقد دوَّن أبوه للحال سلوكه بهذه المناسبة : « في صبيحة هذا اليوم الباكرة ، حينما بدأت آلام المخاض في الساعة الخامسة ، نقلنا سرير هانز الى الغرفة المجاورة . فاستيقظ فيها في الساعة السابعة ، وسمع أنـين الواضعة . فسأل : « لماذا تسعل ماما ؟ » . ثم أردف بعد لحظة يقول : «لا شك ان اللقلق سيأتي اليوم »[٦] .

« وبديهي ان هانز كثيراً ما قيل له في الايام السابقة ان اللقلق سيأتي ببنت صغيرة أو بصبي صغير ، وقد ربط بسداد الانين غير المألوف بمجيء اللقلق » .

---

(٦) كما درجت العادة في فرنسا على أن يقال للأولاد أن الاطفال يعثر عليهم في اللفوف ، كذلك يقال في بلاد اللغة الالمانية أن اللقالق هي التي تاتي بالمواليد .
« هامش الترجمة الفرنسية » .

« وفيما بعد أخذ الى المطبخ ، فرأى في الرواق حقيبة الطبيب ، فسأل : « ما هذا ؟ » ، فجاءه الجواب : « حقيبة » . فقال على الاثر بلهجة من الاقتناع الراسخ : « اليوم سيأتي اللقلق ! » . وبعد الوضع ، حضرت القابلة الى المطبخ ، فسمعها هانز تأمر بإعداد قدح من الشاي ، فقال : « آه ! إن ماما ستحصل على الشاي لأنها تسعل » . ولما استدعي بعد ذلك الى غرفة النوم ، لم ينظر الى أمه ، وانما الى الطشوت التي كانت مليئة بماء ممتزج بالدم ، والتي كانت ما تزال موجودة هناك ، فلاحظ في دهشة بالغة وهو يومىء الى طشت فيه دم : « لكن لا يخرج دم من فرفورتي انا » .

« ان جميع أقواله تدل على أنه يربط كل ما هو غير مألوف في الموقف بمجيء اللقلق . إنه يأخذ ، إزاء كل ما يقع عليه نظره ، سيماء من التوتر والريبة ، وليس ثمة من شك في أن شكوكه الأولى بخصوص قصة طائر اللقلق قد تولدت في نفسه عندئذ .

« ان هانز شديد الغيرة من الوافدة الجديدة ، وما ان يمتدحها أحد أو يقول إنها جميلة ، الخ ، حتى يبادر الى الاعلان بلهجة متهكمة : « لكن ليس لديها أسنان بعد ! »[٧] ؛ وبالفعل ، حين وقع نظره عليها للمرة الأولى ، اخذته دهشة بالغة من انها لا تستطيع ان تتكلم ، وأعرب عن اعتقاده بأنها لا تستطيع الكلام لأنه ليس لها أسنان . وكان من الطبيعي أن يُنحى في الأيام الأولى الى منزلة قصية ، فوقع على حين فجأة مريضاً بذبحة لوزية . وسمعناه في أثناء الحمى يعلن : « لكنني لا أريد أختاً صغيرة ! » .

« بعد زهاء ستة أشهر تم التغلب على الغيرة ، وصار لاخته أخاً

---

(٧) هذا من جديد سلوك نمطي . فثمة طفل آخر لا يكبر أخته إلا بعامين فقط ، كان من عادته ان يتدارك مثل تلك الملاحظات الامتداحية بصيحة غضب يطلقها : « صغيرة جداً ! صغيرة جداً ! » .

عطوفاً بقدر ما هو مقتنع بتفوقه عليها[٨] .

« بعيد ذلك شهد هانز تحميم أخته ، وكان صار لها من العمر أسبوع . فلاحظ قائلاً : « لكن فرفورتها لا تزال صغيرة » ، وأضاف على سبيل العزاء : « غير أنها ستكبر ، وستصبح فرفورتها اكبر »[٩] .

---

(٨) «فليأخذه اللقلق من جديد ! » ، هكذا كان يقول طفل آخر ، لا يكبر هانز إلا بقليل ، من باب الترحاب بأخيه الأصغر . قارن ذلك مع ما قلته عن أحلام موت الأهل الأعزاء في كتابي **تفسير الأحلام** (الطبعة الألمانية السابعة ، ص ١٧٢) .

(٩) الحكم نفسه ، معبراً عنه بالكلمات نفسها ومرفوقاً بالتوقع نفسه ، نُقل الى علمي صدوره عن صبيين صغيرين آخرين ، لما أتيح لهما أن يشبعا لأول مرة فضولهما بمشاهدتهما جسم اختهما الرضيعة. وقد نرتاع لهذا الالتواء المبكر في عقل الطفل . فلماذا لا يعاين هؤلاء المنقبون الصغار ما يرونه حقاً ، وهو أنه لا وجود لفرفورة ؟ اننا نستطيع ، فيما يتعلق بصغيرنا هانز على الأقل ، أن نعطي تفسيراً كاملاً لتصوره المغلوط . فنحن نعلم أنه كان توصل ، بوساطة عمليات استقرائية جادة ، الى قضية عامة تقول إن كل كائن حي ، خلافاً للأشياء الجامدة ، يملك فرفورة . وقد عززت أمه هذا الاقتناع لديه إذ قدمت له معلومات إثباتية فيما يتعلق بالأشخاص الذين لا يقعون تحت ملاحظته . وقد بات عاجزاً الآن عن التنازل عن مقتناه الفكري بالاستناد الى ملاحظته وحدها عن أخته الصغيرة . ومن ثم ارتأى أن الفرفورة موجودة هنا ايضاً ، ولكنها فقط لا تزال صغيرة جداً ، ولسوف تكبر الى أن تصير كبيرة بحجم فرفورة الحصان .

ولسوف نمضي الى أبعد ذلك في دفاعنا عن شرف صغيرنا هانز . فهو لا يتصرف في الحقيقة بأسوأ مما يتصرف الفيلسوف من مدرسة فونت . فالشعور عند هذا الفيلسوف خاصية ملازمة لما هو نفسي ، مثلما أن الفرفورة مقياس لا غنى عنه عند هانز لما هو حي . فإن وقع الفيلسوف على سيرورات نفسية يتعين استنتاج وجودها ، وان لم يقع منها شيء تحت إدارك الشعور ـ فالمرء لا يعرف بالفعل شيئاً عنها ولكنه لا يستطيع مع ذلك الامتناع عن استنتاج وجودها ـ فإنه لا يقول عنها عندئذ إنها سيرورات نفسية لاشعورية ، بل يصفها بأنها شعورية مبهمة . فالفرفورة ما تزال صغيرة جداً ! وحتى في هذه المقارنة ترجح الكفة لصالح صغيرنا هانز . إذ كما هو غالب في التنقيب الجنسي عند الاطفال ، فإن جانباً من المعرفة الصحيحة يختفي هنا خلف الخطأ . فالبنت الصغيرة تملك بالفعل « فرفورة » صغيرة ، نطلق عليها اسم البظر ، بالرغم من أنها لا تكبر ، بل تبقى ضامرة بصفة مستديمة (انظر دراستي الموجزة : **حول النظريات الجنسية الطفلية** ، **مشكلات جنسية** ، ١٩٠٨) .

في تلك السن نفسها ، أي في السنة الثالثة والشهر التاسع ، سرد هانز لأول مرة حلماً رآه : « اليوم ، فيما كنت نائماً ، تصورت أني في غموندن مع ماريدل » .

« وماريدل الصغيرة هي ابنة المالك التي تبلغ الثالثة عشرة والتي كثيراً ما كان يلعب معها » .

وفيما كان الأب يروي هذا الحلم للأم بحضور هانز ، صحح هذا الاخير قائلاً :

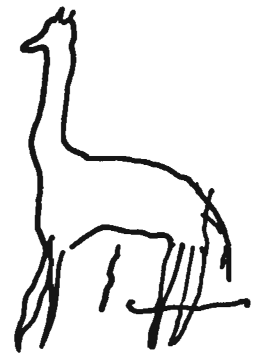
ـ ليس مع ماريدل ، بل وحدي تماماً مع ماريدل .

ونعلم هنا ما يلي : « أمضى هانز صيف ١٩٠٦ في غموندن حيث كان يقضي اليوم كله يجري مع اولاد المالك . وحين غادرنا غموندن تصورنا ان الرحيل والرجوع الى المدينة سيحزان في نفسه كثيراً . ولكن ، لدهشتنا ، لم نلحظ شيئاً من ذلك . فقد لاح عليه السرور من التغيير ، ولم يتكلم طوال عدة أسابيع عن غموندن إلا فيما ندر . وانما بعد انقضاء اسابيع عديدة بزغت لديه ذكريات ـ زاهية الألوان في الغالب ـ عن الزمن الذي أمضاه في غموندن . وفي الاسابيع الاربعة الاخيرة راح يصوغ ذكرياته في تخييلات . فهو يتخيل نفسه يلاعب الاطفال ، برتا واولغا وفريتزل ، ويكلمهم كما لو أنهم حاضرون ، وهو يستطيع ان يسلي نفسه على هذا النحو طيلة ساعات في كل مرة . وأما الآن وقد صار له اخت واستحوذت عليه بطبيعة الحال مشكلة أصل الاطفال ، فإنه ما عاد يسمي برتا واولغا إلا « طفلتيه » ، بل إنه أضاف قوله في احدى المرات : « طفلتاي أيضاً ، برتا واولغا ، جاء بهما اللقلق». وينبغي بالبداهة ان نفهم ذلك الحلم الذي طرأ بعد ستة أشهر من الرحيل عن غموندن على أنه تعبير عن الحنين الى العودة الى غموندن » .

هذا هو الحد الذي وصل اليه الأب . وإني لألاحظ ، من قبيل الاستباق ، ان هانز حينما عبر عما بنفسه ذلك التعبير في حديثه عن

طفلتيه اللتين أتى بهما اللقلق انما كان يدحض بصوت عالٍ شكاً يقبع في أعماق نفسه .

لقد دوّن الأب لحسن الحظ أشياء كثيرة ارتدت فيما بعد أهمية غير متوقعة . « كنت أرسم زرافة لهانز الذي تردد كثيراً في الآونة الاخيرة على حديقة الحيوان في شونبرون. فقال لي: «ارسم فرفورتها أيضاً». فأجبته: «ارسمها بنفسك». عندئذ أضاف إلى رسمي للزرافة هذا الخط (انظر الرسم أدناه) ، بادئاً برسم خط قصير ، ثم مطيلاً إياه بخط آخر ، ملاحظاً : « ان فرفورتها أطول » .



الشكل ١

« مررت وهانز بحصان كان يبول ، فقال هانز : « إن للحصان فرفورته من تحته مثلي » .

« وشهد تحميم أخته ، التي صار لها من العمر ثلاثة أشهر ، فقال بلهجة من الاشفاق : « إن لها فرفورة صغيرة جداً ، صغيرة جداً » .

« وأهديت اليه دمية ليلعب بها ، فجردها من ثيابها ، وتفحصها بدقة ، وقال : « لكن فرفورتها صغيرة جداً ، صغيرة جداً ! » .

وقد رأينا من قبل أن هذه الصيغة تتيح له أن يواصل اعتقاده بالكشف الذي كشفه (انظر ص ١٣) .

ان كل باحث عرضة للوقوع في الخطأ بين الحين والآخر . وإنه لعزاء له ـ مثله مثل هانز في المثال التالي ـ ألا ينفرد وحده بالخطأ ، بل أن يحتج ، تبريراً لخطئه ، بالدارج من الاستعمالات اللغوية . فقد رأى هانز في كتابه المصور قرداً ، فأشار الى ذنبه المرفوع الى أعلى وقال : « انظر ، يا بابا ، فرفورته ! » .

ان الاهتمام الذي كان هانز يوليه لـ « الفرفورات » قد أوحى اليه بلعبة خاصة وشخصية . « كان المدخل الامامي للدار يؤدي الى مرحاض والى حجرة معتمة يخزن فيها الحطب . فصار هانز منذ بعض الوقت يذهب الى حجرة الحطب ويقول : « انا ذاهب الى مرحاضي » . وقد نظرت يوماً الى ما يفعله في الحجرة المعتمة الصغيرة . فكشف عن عضوه وقال : « إني أفرفر » . هذا معناه اذن انه كان **يلعب** لعبة المرحاض . ولا يتجلى طابع اللعب هذا في أنه كان يتظاهر بالتبويل بدون ان يفعل ذلك حقاً فحسب ، بل كذلك في انه كان لا يذهب الى المرحاض ، وهو ما كان يمكن ان يكون على كل حال اكثر بساطة ، بل كان يفضل الحجرة المعتمة ويسميها **مرحاضه** » .

اننا لن نوفي هانز حقه لو قصرنا اهتمامنا على السمات الايروسية الذاتية لحياته الجنسية . وسوف يدلي لنا ابوه بملاحظات مفصلة عن علاقاته الحبية بغيره من الاطفال ، وهو ما يدل على وجود **اختيار موضوعاني** عنده كما عند الراشد . والحق أن هانز دلل أيضاً على تقلب لافت للنظر في علاقاته هذه وعلى ميل مسبق إلى تعدد الزوجات .

« في الشتاء (ثلاث سنوات وتسعة أشهر) اصطحبت هانز الى سكاتنغ رنك[١٠] ، وعرّفته الى ابنتي زميلي ن ، وكان لهما من العمر زهاء عشر سنوات . فجلس هانز بقربهما ، على حين راحت البنتان ، بالنظر الى تقدمهما عليه في السن ، تنظران من عل ، وفي شيء من الازدراء ، الى

(١٠) حلبة للتزحلق على الجليد في فيينا . « م » .

الطفل الصغير . أما هو فكان يتأملهما بإعجاب ، وإن لم يترك ذلك فيهما انطباعاً ذا شأن . وعلى الرغم من ذلك ، ما عاد هانز يتحدث عنهما فيما بعد إلا قائلاً : « بنتاي الصغيرتان » . « اين بنتاي الصغيرتان ؟ متى تحضر بنتاي الصغيرتان ؟ » ، وظل يلاحقني لبضعة اسابيع بالسؤال : « متى أذهب من جديد الى حلبة التزحلق لأرى بنتيّ الصغيرتين ؟ » .

قدم ابن عم له ، يبلغ من العمر خمس سنوات ، لزيارة هانز ، وكان قد صار في الرابعة من العمر . فراح هانز يعانقه باستمرار ، وقال مرة اثناء عناق حار : « كم أحبك ! كم أحبك! » .

ان هذه هي السمة الأولى ، لا الاخيرة ، للجنسية المثلية نلتقيها عند هانز . فصغيرنا هانز يبدو حقاً أنموذجاً لكل الانحرافات الجنسية !

« اقمنا في شقة جديدة (كان هانز في الرابعة من العمر) . وكان للمطبخ باب يفضي الى شرفة يمكن منها إلقاء النظر الى داخل شقة اخرى مقابلة تقع في الجانب الآخر من الفناء . وقد اكتشف فيها هانز فتاة صغيرة في حوالي السابعة او الثامنة من العمر . وصار يجلس ، كيما يتسنى له ان يتأملها ، على الدرجة المفضية الى الشرفة ، ويبقى على هذه الحال ساعات . وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر بخاصة ، حين تعود الفتاة من المدرسة ، كان يتعذر علينا حمله على البقاء في الغرفة ، وما كان لشيء ان يغريه بالامتناع عن شغل مركز مراقبته . وذات يوم لم تظهر الفتاة عند النافذة في الساعة المعهودة ، فعز على هانز ان يثبت في مكان وحاصر أهل البيت بأسئلته : « متى تأتي الفتاة الصغيرة ؟ اين الفتاة الصغيرة ؟ » ، الخ . وحين ظهرت في نهاية الأمر استخف به الفرح ، ولم يعد يحول بصره عن الشقة المقابلة . والعنف الذي تبدى به هذا « الحب عن بعد »[١١] يمكن تفسيره بأن هانز لم يكن له من رفيق في اللعب ، لا

---

(١١) خلاصة القول إن الحب عن بعد لا يروق لي اطلاقاً .

فلهلم بوش

ذكر ولا أنثى . وبديهي أن العلاقات الواسعة بأطفال آخرين ضرورية للنمو السوي للطفل .

« وجد هانز اخيراً رفاقاً ، على نحو ما سنبينه عما قليل (كان هانز آنئذ في الرابعة والنصف من العمر) ، حين انتقلنا للاقامة صيفاً في غموندن . وكان رفاقه في اللعب هناك أولاد المالك : فرانزل (في حوالي الثانية عشرة) وفريتزل (ثماني سنوات) وأولغا (سبع سنوات) وبرتا (خمس سنوات) . وكان يلعب معه أيضاً أولاد الجيران : آنا (عشر سنوات) وفتاتان صغيرتان اخريان في التاسعة والسابعة نسيت اسميهما . وكان رفيقه المفضل فريتزل ، فكان كثيراً ما يعانقه ويؤكد له حبه . وقد سألناه يوماً : « أي الفتيات الصغيرات تحبها اكثر ؟ » ، فأجاب « فريتزل » . وكان في الوقت نفسه يعامل البنات بطريقة عدوانية ، ذكرية ، اعتدادية ، وكان يأخذهن بين ذراعيه ويغدق عليهن بالقبلات ، وكانت برتا بوجه خاص تتقبل ذلك بطيبة خاطر . وفيما كانت برتا تهم بالخروج ذات مساء من الغرفة ، طوق عنقها بذراعيه وقال لها بلهجة ملؤها الحب : « ما ألطفك يا برتا ! » . ولكن هذا لم يمنعه على كل حال من ان يعانق الاخريات ايضاً وان يؤكد لهن حبه . وكان يحب ايضاً ماريدل ، وهي ابنة اخرى للمالك ، ولها من العمر اربعة عشر عاماً ، وقد درجت على ملاعبته . وقد قال مرة ، وهو يوضع في سريره : « أريد ماريدل ان تنام معي » . فلما أجيب بأن هذا غير ممكن ، أردف يقول : « ينبغي اذن ان تنام مع ماما او مع بابا » . فقيل له إن هذا ايضاً غير ممكن ، وان ماريدل لا بد لها ان تنام عند أهلها . فدار عندئذ الحوار التالي :

هانز : إذن انا سأنزل لأنام مع ماريدل .

الام : أتريد حقاً ان تترك ماما لتذهب وتنام تحت ؟

هانز : اوه ! سأصعد من جديد غداً صباحاً لأتناول فطوري ولاذهب الى المرحاض .

الام : اذا كنت تريد حقاً ان تترك بابا وماما ، فخذ معطفك وكيلوتك و ... وداعاً !

« فأخذ هانز ملابسه واتجه الى الدرج ، كي يذهب وينام مع ماريدل ، ولكننا بالطبع أعدناه » .

ان خلف هذه الامنية : « أريد ماريدل أن تنام معي » تكمن بكل تأكيد أمنية أخرى : « أريد ماريدل (التي يحب جداً ان يكون معها) ان تصبح واحدة من أسرتنا » . غير أن أبوي هانز كانا يأخذانه ـ وان في غير كثرة من الاحيان ـ الى فراشهما ، ومن المحقق ان احاسيس ايروسية كانت في مثل هذه الاحوال تستيقظ لديه وهو راقد بينهما ، وهذا ما يضفي معنى ايروسيا ايضاً على رغبته في النوم مع ماريدل . فالرقاد الى جانب الأب أو الأم في الفراش كان لدى هانز ، كما لدى كل طفل آخر ، مصدراً لاحاسيس وانفعالات ايروسية .

لقد تصرف صغيرنا هانز ، في مواجهته تحدي أمه ، تصرف رجل صغير حقاً ، بالرغم من نزواته الى الجنسية المثلية .

« في مناسبة اخرى ، سنتكلم عنها للتو ، قال هانز لأمه ايضاً : « أتعرفين ، لكم أحب أن انام مع البنت الصغيرة » . وهذه الحادثة كانت مصدراً كبيراً للتسلية لنا ، لأن هانز تصرف فيها تصرف راشد عاشق بملء معنى الكلمة . فقد درجت فتاة صغيرة جميلة ، لها من العمر ثماني سنوات ، في الايام القليلة الماضية ، على المجيء الى المطعم الذي نتناول فيه طعام الغداء ، وللحال شغف بها هانز . فكان لا يتوقف عن الالتفات من فوق كرسيه ليرميها بنظرات والهة ؛ واذا ما فرغ من تناول الطعام ذهب يجلس بجانبها ليغازلها ، ولكنه اذا ما شعر وهو يفعل ذلك ان ثمة أحداً يراقبه علته حمرة قرمزية . واذا استجابت الفتاة الصغيـرة لغمزاته ، تحول عنها بعينيه الى الجانب الآخر وقد بدا عليه الارتباك . وطبيعي ان سلوكه هذا كان يدخل البهجة على قلوب جميع رواد المطعم . وفي كل يوم كان يسأل عند اقتياده الى المطعم : « هل تعتقد ان البنت

الصغيرة ستأتي اليوم ؟ » وعندما تظهر في آخر الأمر ، تعلو وجهه الحمرة ، شأنه شأن الراشد في مثل هذا الموقف . وذات مرة أقبل علي مشع الوجه وهمس في أذني : « أتعرف ، يا بابا ، انا أعرف الآن اين تسكن البنت الصغيرة . فقد رأيتها تصعد الدرج في المكان الفلاني » . وعلى حين كان يتصرف بطريقة عدوانية مع البنات الصغيرات الساكنات في البيت ، كان في الحالة المستجدة أقرب الى ان يكون عاشقاً افلاطونياً أخذه الوجد . وربما كان مرد ذلك الى أن البنات الصغيرات في البيت ريفيات ، بينما فتاة المطعم الصغيرة سيدة من سيدات المجتمع الراقي . وقد كنا ذكرنا ما قاله هانز يوماً من أنه يود لو ينام معها .

« بما أنني كنت لا أريد ان يبقى هانز نهباً للتوتر النفسي الذي عانى منه الى الآن من جراء حبه للبنت الصغيرة ، فقد أجريت بينهما تعارفاً ، ودعوت البنت الصغيرة الى القدوم لرؤيته في الحديقة حين يفيق من قيلولته . وقد انفعل هانز انفعالاً شديداً وهو ينتظر البنت الصغيرة ، فما استطاع لأول مرة ان يغفو بعد الظهر ، بل راح يتقلب على فراشه بلا انقطاع . سألته أمه : « لماذا لا تنام ؟ هل تفكر بالبنت الصغيرة ؟ » ، فأجاب وملؤه السعادة : « نعم » . وكان لدى عودته من المطعم الى البيت قد روى لكل من فيه : « أتعرف ، اليوم ستأتي بنتي الصغيرة لتراني » . وقد ذكرت ماريدل ، التي لها من العمر ١٤ سنة ، أنه راح يسألها بلا انقطاع : « أتعتقدين انها ستكون لطيفة معي ؟ أتعتقدين انها ستعطيني قبلة حينما أعانقها ؟ » ، وما الى ذلك .

« لكن السماء أمطرت عصر ذلك اليوم ، فلم تتم الزيارة . فتسلى هانز عنها مع برتا وأولغا » .

إن ملاحظات أخرى ، تمت في فترة العطلة الصيفية تلك ، تبيح لنا أن نفترض ان ضروباً شتى من التغيرات كانت تتهيأ في نفس الصبي الصغير .

« هانز له الآن من العمر اربع سنوات وثلاثة أشهر . أعطته أمه

هذا الصباح حمامه اليومي ، وبعد الحمام جففته وذررته . وفيما كانت تذرر المنطقة المحيطة بقضيبه ، مع حرصها على عدم مسه ، سألها هانز : « لماذا لا تضعين اصبعك عليه ؟ » .

الام : لأن ذلك رذالة .

هانز : ماذا ؟ رذالة ؟ لماذا ؟

الام : لأن ذلك أمر لا يليق .

هانز (ضاحكاً) : ولكنه مبهج جداً ![١٢] .

في تلك الفترة ذاتها تقريباً رأى هانز حلماً يلفت النظر بتعارضه مع ما كان أبداه من جرأة تجاه أمه . كان أول حلم للطفل يصيبه من التحريف ما يجعله مستغلقاً . غير أن الاب استطاع بثقوب بصيرته ان ينفذ الى معناه .

« هانز (اربع سنوات ونصف) ، **حلم** - روى هانز حين استيقظ هذا الصباح : « أتعرف ، هذه الليلة فكرت : **واحد قال** : **من يريد أن يأتي معي** ؟ **فقال واحد** : **أنا** . **وعندئذ كان عليه أن يجعله يفرفر** » .

« لقد أظهرت أسئلة أخرى بوضوح أن هذا الحلم يفتقد أي عنصر بصري ، وأنه ينتمي الى « الطراز السمعي »[١٣] الصرف . كان هانز في الايام القليلة الماضية يلعب ألعاب شراكة **ورهن** مع اولاد المالك ، ومن ضمنهم صديقتاه اولغا (سبع سنوات) وبرتا (خمس سنوات) . (ولعبة الرهـن تلعب كالآتي : أ - « لمن هذا الرهن الذي في يدي ؟ »

(١٢) روت لي أم اخرى ، تعاني هي نفسها من العصاب ، ولا تريد أن تصدق بوجود الاستمناء الطفلي ، تفاصيل محاولة إغراء مشابهة بدرت عن ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة . فقد خاطت لصغيرتها كيلوتاً ، وفيما كانت تقيسه عليها لتتأكد من انه ليس ضيقاً يعيقها عن المشي ، واضعة يدها على السطح الداخلي لأعلى الفخذين ، أطبقت الصغيرة ساقيها فجأة على يد أمها وقالت : « ماما ، اتركي يدك هنا . هذا لذيذ جداً ! » .

(١٣) بالفرنسية في النص : TYPE AUDITIF «م» .

ب - « لي انا » . وعندئذ يتقرر ما ينبغي على ب ان يفعله) . وقد انبنى الحلم على غرار هذه اللعبة، وكل ما هنالك أن هانز تمنى فيه ان يُحكم على من يعود له الرهن، لا بأن يعطي كالمعتاد قبلة أو ان يتلقى كالمعتاد أيضاً صفعة، بل بأن يفرفر، أبو بعبارة أدق: أن يجعل الآخر يفرفر .

« طلبت اليه ان يروي لي الحلم مرة اخرى ، فرواه بالعبارات نفسها ، ولكنه استبدل جملة : « **واحد قال** » بجملة : « **هي قالت** » .

ومن الواضح أن « هي » هذه هي برتا أو أولغا ، واحدة من البنات اللاتي كان يلعب معهن . وبترجمة الحلم يكون كما يلي : ألعب لعبة الرهن مع البنات الصغيرات. أسأل: «من يريد أن يأتي معي؟». تجيب هي (برتا او اولغا) : « أنا » . عندئذ يكون عليها أن تجعلني أفرفر (أي ان تساعدني على التبول ، وهذا ، كما هو واضح للعيان ، ما يستطيبه هانز) .

من الواضح أن عملية جعله يفرفر[١٤] ، بما يرافقها من فك لازرار بنطلونه وإخراج لقضيبه ، كانت تصطبغ بصبغة من اللذة بالنسبة الى هانز . وفي اثناء النزهات كان ابوه في الغالب هو الذي يعينه على ذلك ، وهذا يسَّر تثبيت ميل جنسي مثلي على الأب .

« قبل ذلك بيومين ، كما أسلفنا الذكر ، سأل أمه بينما كانت تنظف وتذرر منطقته التناسلية : « لماذا لا تضعين إصبعك عليه ؟ » . وبالأمس ، وفيما كنت أهم بأن أعينه على قضاء حاجته الصغيرة ، طلب إلي للمرة الأولى أن أذهب به الى ما وراء البيت كيلا يراه أحد ، وأضاف قوله : « في السنة الماضية ، عندما كنت أفرفر ، كانت برتا واولغا تنظران إلي » . وهذا يعدل القول ، على ما أعتقد ، إنه كان يستطيب في السنة الماضية ان تنظر إليه البنات الصغيرات وهو يفعل ذلك ، ولكن الأمر لم يعد كذلك اليوم. فنزعته الاستعرائية قد سقطت الآن تحت الكبت. وأن

(١٤) قد لا يكون تركيب الجملة هذا عربياً فصيحاً ، ولكننا آثرنا الترجمة على هذا النحو الحرفي حـفاظاً على النبرة الطفلية للجملة . «م» .

تكون رغبته في أن تنظر اليه برتا واولغا وهو يفرفر (أو وهما تجعلانه يفرفر) قد أمست الآن مكبوتة في الحياة الواقعية ، فهذا ما يفسر ظهور هذه الرغبة في الحلم ، حيث تنكرت تنكراً بارعاً في إهاب لعبة الرهن . وقد لاحظت منذئذ ، في مناسبات عدة ، أنه ما عاد يرغب في ان يراه أحد وهو يفرفر » .

وسأنبه هنا الى ان هذا الحلم يتقيد بالقاعدة التي عرضتها في **تفسير الاحلام**[15] ، والتي تنص على أن الاقوال التي يُنطق بها أو تُسمع في الحلم تُشتق من اقوال سمعها الحالم نفسه او نطق بها في الايام السابقة .

وقد دوّن والد هانز ملحوظة اخرى يرجع تاريخها الى الحقبة التي أعقبت مباشرة عودة الاسرة الى فيينا : « شهد هانز (٤ سنوات و ١/٢) مرة اخرى تحميم اخته الصغيرة وطفق يضحك . فسئل : « لماذا تضحك ؟ » .

هانز : أضحك من فرفورة آنا .

ـ لماذا ؟

ـ لأن فرفورتها حلوة كثيراً » .

« لم يكن الجواب صادقاً بطبيعة الحال : ففرفورتها بدت له في الواقع مضحكة . وفضلاً عن ذلك ، فإنها المرة الأولى التي تعرَّف فيها بمثل هذا الجلاء الفارق بين الاعضاء التناسلية المذكرة والمؤنثة ، بدلاً من ان ينكره » .

---

(١٥) **تفسير الاحلام** ، الطبعة السابعة ، ص ٢٣٨ وما يليها .

(٢)
تاريخ المرض والتحليل

« عزيزي الدكتور ،

« أبعث اليك بشيء آخر يتصل بهانز ـ ولكنه لا يعدو ان يكون هذه المرة ، مع الأسف ، مساهمة في تاريخ حالة . وكما سترى، فقد تظاهرت لديه ، في الأيام الاخيرة ، اضطرابات عصبية تسبب لنا ، انا وزوجتي ، قلقاً شديداً ، لأننا لم نستطع الاهتداء الى اية وسيلة لإزالتها . وسأبيح لنفسي ان أذهب غداً ... لرؤيتك ، لكني .. أرسل اليك تقريراً مكتوباً عما امكنني جمعه .

« في ارجح الظن ان التربة قد تهيأت لديه من جراء إثارة جنسية زائدة عن الحد نجمت عن حنان أمه ، لكني لا استطيع تعيين العلة المباشرة للاضطرابات . ويبدو أن **خوفه من ان يعضه حصان في الشارع** مرتبط على نحو ما بارتعابه من قضيب كبير ـ فهو قد لاحظ في سن مبكرة، كما تعلم من تقرير سابق، قضيب الخيل الكبير، واستنتج يومئذ أن أمه، ما دامت كبيرة الى هذا الحد، تملك ولا بد فرفورة مثل الحصان .

« لست أدري ما يمكن استخلاصه من هذه المعطيات . هل رأى في مكان ما شخصاً استعرائياً ؟ أم ان الامر كله لا يرتبط بغير أمه ؟ انه ليس مما يبهجنا أن يبدأ في مثل هذه السن المبكرة بمواجهتنا بألغاز. على ان هانز ، فيما عدا خوفه من الخروج الى الشارع واكتئاب يطرأ عليه كل

مساء ، لا يزال على عهده دائم المرح والابتهاج » .

لن نتبع ابا هانز لا في ما ينتابه من هموم يسهل فهمها ولا في ما حاوله من محاولات اولى للتفسير : بل سنبدأ بتفحص المادة التي زوّدنا بها . وليست مهمتنا بحال من الاحوال أن « نفهم » دفعة واحدة حالة من الحالات المرضية ، فهذا أمر لا يتأتى لنا إلا في مرحلة لاحقة ، بعدما تكون تجمعت لدينا انطباعات كافية . أما في الوقت الحاضر فسنعلق حكمنا وسنولي كل ما هو متاح لملاحظتنا قدراً واحداً من الاهتمام .

هاكم التقارير الأولى التي يرجع تاريخها الى الايام الأولى من شهر كانون الثاني من هذه السنة (١٩٠٨) :

« نهض هانز (٤ سنوات و ٩ أشهر) ذات صباح دامع العينين . سألته والدته عن سبب بكائه . فأجاب : « فيما كنت نائماً اعتقدت انك رحلت وانه لم يعد لي أم **لأتدلع** معها .

« اذن هو حلم من أحلام الحصر .

« وكنت لاحظت في ذلك الصيف في غموندن شيئاً مماثلاً . فعند المساء ، كان ينزع في غالب الاحيان ، وهو في سريره ، الى ان يكون عاطفياً جداً ، وقد أبدى مرة هذه الملاحظة : « اذا لم يعد لي أم » أو « لو رحلت من هنا » (أو شيء من هذا القبيل) ، فأنا ما عدت أذكر كلماته بدقة ؛ ومن سوء الحظ أن أمه ، كلما ظهر عليه هذا المزاج الحزين ، كانت تأخذه الى سريرها .

« في الخامس من كانون الثاني على وجه التقدير ، سعى الى سرير أمه في ساعة مبكرة وقال لها : « أتعرفين ما قالته خالتي م : « ما أجمل حمامته الصغيرة[1]!» (كانت الخالة م تنزل عندنا منذ نحو اربعة

(١) بالألمانية PISCHL = قضيب . وانه لمن اكثر الأمور شيوعاً ـ وحالات التحليل النفسي مليئة بها ـ أن تُداعب الأعضاء التناسلية للأولاد الصغار بالأقوال ـ بل أحياناً بالأفعال ـ من قبل اقاربهم المحبين ، بمن فيهم الوالدان نفسهما .

اسابيع ؛ وفيما كانت ذات يوم ترقب زوجتي تحمم الصبي الصغير ، فاهت بالفعل بتلك الكلمات بصوت خافت . وقد سمع هانز هذه الكلمات ، وهو يسعى الآن الى استغلالها لصالحه) .

« في السابع من كانون الثاني ، ذهب كالمعتاد مع الخادمة الى شتادبارك[2]. وفي الطريق طفق يبكي ويطلب العودة إلى البيت: فهو يريد ان « يتدلع » مع ماما ـ ولما سئل في البيت لماذا أبى مواصلة النزهة وانخرط في البكاء ، رفض الكلام . وظل على مرحه المعتاد حتى المساء ؛ ولكن في المساء انتابه خوف ظاهر ، وبكى ، وتعذر إبعاده عن أمه ؛ فهو يريد من جديد ان يتدلع ، ثم عاد بعد ذلك الى مرحه ونام نوماً هادئاً .

« في الثامن من كانون الثاني صممت زوجتي على ان تقتاده بنفسها الى النزهة في شونبرون ، حيث يطيب له الذهاب عادة ، لتتبين حقيقة الأمر . فطفق يبكي من جديد ، راغباً عن الخروج ، وقد بدا عليه الخوف. غير انه في نهاية الأمر ذهب، إلا ان رعباً ظاهراً استولى عليه في الشارع . وفي طريق العودة من شونبرون قال لأمه بعد صراع داخلي كبير : **كنت خائفاً من أن يعضني حصان** (كانت أمارات القلق قد بدت عليه بالفعل لدى مرآه حصاناً في شونبرون) . وفي المساء عرته على ما يبدو نوبة مماثلة لنوبة مساء اليوم السابق ، وطلب ان يتدلع . وأمكنت تهدئته . وقال باكياً : « أعرف انه سيكون علي غداً ان اذهب من جديد للنزهة » ، ثم اضاف : « الحصان سيأتي الى الغرفة » .

« في ذلك اليوم نفسه سألته أمه : « لعلك تضع يدك على فرفورتك ؟ » . فأجاب : « نعم ، كل مساء ، حين اكون في فراشي . وفي اليوم التالي ، التاسع من كانون الثاني ، جرى تحذير هانز ، قبل قيلولته ، من ان يلامس فرفورته . وعندما استيقظ ، سئل عما حدث ،

(٢) شتادبارك STADPARK : حديقة عامة في وسط فيينا . «م» .

فأجاب أنه لامسها على كل حال لهنيهة من الزمن » .

تلكم هي اذن بداية الحصر والرهاب عند هانز . ولدينا أسباب وجيهة ـ وهذا مفهوم ـ للفصل بينهما . والمادة التي في متناولنا تبدو لنا ، فضلاً عن ذلك ، كافية تماماً لتسديد خطانا ، وما من مرحلة من مراحل المرض أحسن لفهمه من مرحلته الاستهلالية ، على نحو ما نتبينها هنا ، علماً بأن هذه المرحلة غالباً ما تُهمل مع الأسف او تُغفل . ان الاضطراب العصبي بدأ بأفكار عاطفية وحصارية[٣] في آن معاً ، ثم بحلم حصاري كان مضمونه كالتالي : هانز يفقد امه ، مما يعني أنه ما عاد يستطيع أن « يتدلع » معها . اذن فلا بد ان تكون محبة هانز لامه قد زادت زيادة هائلة . وتلكم هي الظاهرة الاساسية التي هي بمثابة الاسس لحالته .

لنستعد في اذهاننا ، تأييداً لهذه الواقعة ، محاولتي الاغواء اللتين قام بهما هانز تجاه أمه ، وإحداهما يرجع تاريخها الى الصيف ، وثانيتهما ـ ولا تتعدى امتداحه قضيبه لها ـ جاءت مباشرة قبل تمخُّض خوفه الحصاري من الشوارع . ومحبته المزدادة لأمه هي التي تحولت على نحو مفاجيء الى حصر ، هي التي وقعت ، كما سنقول ، تحت الكبت . ولا نعرف بعد من أين جاء الدافع الى الكبت ؛ وربما حدث هذا الكبت نتيجة فقط لزيادة شدة الانفعالات التي ما عاد بوسع الطفل السيطرة عليها ؛ وربما تكون قوى اخرى ، لم نتعرَّفها بعد ، قد تدخلت . وهذا ما سوف نتبينه فيما بعد . وذلك الحصر ، المناظر لصبوة ايروسية مكبوتة ، هو أولاً ، وككل حصر طفلي ، بلا موضوع : مجرد حصر ، وليس بعد خوفاً . فالطفل لا يستطيع ان يدرك مما هو خائف ، وحين لم يشأ هانز ، بعد نزهته الأولى مع الخادمة ، أن يفصح عما هو خائف منه ،

(٣) الصفة من الحُصار او الحصر ANGOISSE . «م» .

فذلك بكل بساطة لأنه لا يعلمه بعد . وقد قال كل ما يعرف : انه يفتقد أمه في الشارع ، أمه التي يمكنه ان يتدلع معها ، وانه لا يريد الابتعاد عنها . وقد كشف بذلك بصدق تام عن المغزى الأول لنفوره من الشارع .

فضلاً عن ذلك ، فإن الحالة التي كان عليها لأمسيتين على التوالي قبل ذهابه للنوم ، وهي حالة حصر مصبوغة بصبغة عاطفية جلية ، تثبت انه لم يكن ثمة وجود بعد في بداية مرضه لرهاب من الشارع أو من النزهة أو حتى من الخيل . ولو وجد مثل هذا الرهاب ، لتعذر تفسير الاحوال التي تعتريه مساء ؛ فمنذا الذي يكلف نفسه ، ساعة الرقاد ، مؤونة التفكير بالشارع وبالنزهة ؟ وبالمقابل ، فإن تعليل تلك الاحوال المسائية يغدو شافاً كل الشفوف اذا ما وضعنا في اعتبارنا ان هانز يقع ، ساعة الرقاد ، فريسة ليبيدو معزز ، موضوعه الأم ، وهدفه في أرجح الظن ان ينام معها . وبالفعل ، كانت التجربة في غموندن قد علمته أنه من الممكن ان ترضى امه ، اذا ما اعترت طفلها مثل تلك الاحوال ، بأخذه الى سريرها ، ولا شك في انه كان يريد أن يصل هنا ، في فيينا ، إلى النتيجة عينها . ولا يغرب عنا ايضاً أنه كان قضى في غموندن بعض الوقت مع أمه بمفرده ، إذ لم يكن في مقدور الأب تمضية العطلة بكاملها هناك . أضف الى ذلك ان نوازع الحب لديه كان يتقاسمها هناك عدد من رفاقه في اللعب ، من أصدقاء وصديقات ، على حين أنه لم يعد له أحد منهم في فيينا ، بحيث صار في وسع طاقته الليبيدوية ان ترتد بتمامها نحو أمه .

هكذا يناظر الحصر عنده صبوة ليبيدوية مكبوتة، غير أنه ليس هو بحد ذاته هذه الصبوة ؛ فلا بد من أن يؤخذ الكبت ايضاً بعين الاعتبار . ان الصبوة تنقلب بتمامها الى إشباع إذا ما تأمن لها الموضوع الذي تشتهيه ؛ وعلاج كهذا لا يعود ناجعاً في حالات الحصر ؛ فالحصر يبقى مستمراً حتى ولو توفرت امكانية لإشباع الصبوة ، والحصر لا يعود قابلاً للتحويل بتمامه الى ليبيدو ؛ وثمة شيء يبقي على الليبيدو في حالة

كبت(٤) . وقد تبين أن هذا هو واقع الحال لدى هانز حينما صحبته أمه في النزهة التالية . فمع أنه كان في هذه المرة مع أمه ، فقد ساوره حصر، أي صبوة غير مشبعة اليها . صحيح أن الحصر كان أقل ، إذ ارتضى هانز بأن يُقتاد الى النزهة ، على حين كان أرغم الخادمة على إعادته الى البيت ؛ هذا الى ان الشارع ليس بالمكان المناسب لـ « التدلع » أو لأي شيء آخر مما كان يمكن أن يتوق العاشق الصغير الى فعله . غير ان الحصر صمد للامتحان ، ولا بد الآن من أن يجد له موضوعاً . وانما في أثناء تلك النزهة عبر هانز لأول مرة عن خوفه من ان يعضه حصاناً . فمن اين جاءت مادة هذا الرهاب ؟ في اغلب الظن من تلك العقد التي ما تزال مجهولة لدينا ، والتي أسهمت في الكبت وأبقت على صبواته الليبيدوية تجاه أمه في حالة كبت . وذلكم هو لغز آخر ، ولن يكون في وسعنا ان نهتدي الى حل له إلا اذا تتبعنا تطورات حالة هانز . وكان أبو هانز قد زودنا ببعض نقاط الارتكاز ، وبوسعنا في اغلب التقدير أن نركن اليها : فهانز كان يلاحظ الخيل دوماً باهتمام ، بالنظر الى كبر فرفورتها ؛ وقد افترض هانز أن أمه لا بد أن تكون لها فرفورة مثل فرفورة الحصان ، وهلم جراً . وبوسعنا على هذا الاساس ان نذهب الى ان الحصان هو مجرد بديل للأم . ولكن ما معنى ما أبداه هانز في هذه الحال من خوف في المساء من ان يدخل الحصان الى الغرفة ؟ قد يقال : مخاوف سخيفة لطفل صغير . غير ان العصاب لا يقول ابداً أشياء سخيفة ، مثله في ذلك مثل الحلم . وما أسهل ذم الأشياء التي لا نفهمها . فأجمل بها من وسيلة لتيسير المهمة على انفسنا!

علينا ان نحاذر السقوط في شراك هذا الاغراء بصدد نقطة اخرى

(٤) ان أردنا الصراحة في الكلام قلنا إن ذلك هو المعيار الذي بمقتضاه نصف بالسواء أو بعدمه مثل تلك المشاعر التي يخالطها حصر ورغبة : فنحن نسميها حصراً مرضياً ، ابتداء من اللحظة التي لا يعود ممكناً فيها التفريج عنها بالحصول على الموضوع المشتهى .

ايضاً . فقد أقر هانز بأنه يتسلى في كل ليلة ، وقبل ان ينام ، باللعب بقضيبه . عندئذ سيهتف طبيب الأسرة : « آه ! كل شيء يتضح الآن . فالطفل يستمني ، ومن هنا كان الحصر » . ولكن رويدنا ! فأن يتدبر الطفل لنفسه احاسيس ملذّة بالاستمناء ، فأمر لا يفسر لنا على الاطلاق حصره ، بل يجعل منه بالأحرى لغزاً مستغلقاً كل الاستغلاق . فحالات الحصر لا تتولد عن الاستمناء ، ولا كذلك عن أي إشباع . زد على ذلك أنه لا مناص لنا من التكهن بأن هانز ، البالغ من العمر الآن ٤ أعوام و ٩ أشهر ، يمنح نفسه هذه اللذة منذ نحو سنة على الاقل (انظر ص ١٢) ، وسوف نرى أنه كان في هذه الفترة عينها منخرطاً في صراع ليتخلص من هذه العادة ، وهذا ما يتفق على نحو افضل مع الكبت وتكوين الحصر .

ولزام علينا ايضاً ان نقول كلمة حق إنصافاً لوالدة هانز ، العظيمة الطيبة والتفاني . فالأب يتهمها ، وان بظاهر من الحق ، بأنها تسببت في تمخض العصاب من جراء غلوها في إحاطة الطفل بالحب ومسارعتها المجاوزة الحد في تواترها الى أخذه الى فراشها . ومن الممكن لنا على هذا الاساس أن نلومها ايضاً على أنها عجلت بسيرورة الكبت إذ صدت صداً أعنف مما ينبغي عروض الطفل (« هذه رذالة ») . بيد أنه كان عليها ان تضطلع بدور رسمه القدر ، وكان موقفها صعباً .

لقد اتفقتُ مع والد هانز على أن يقول له إن كل قصة الاحصنة تلك ليست إلا حماقة ، لا اكثر . وكان على أبيه أن يقول له إن الحقيقة هي أنه (هانز) مغرم جداً بأمه ويريدها أن تأخذه الى فراشها . ولأن فرفورة الاحصنة أثارت اهتمامه الى هذا الحد ، فقد بات الآن يخشى الاحصنة . وانه (هانز) قد لاحظ أنه ليس من المستحسن الانشغال الى هذا الحد بـ « الفرفورات » ، ولا حتى بفرفورته هو ، وان وجهة النظر هذه كانت صائبة تماماً . واقترحت ، فضلاً عن ذلك ، على الأب ان يشرع بتنوير هانز بصدد بعض الامور الجنسية . وكما كان سلوك

الطفل الماضي يبيح لنا ان نفترض ، فقد بقي الليبيدو عنده متشبثاً بالرغبة في رؤية فرفورة أمه : ومن ثم اقترحت على ابي هانز ان يلغي هذا الهدف لرغبة هانز بإفهامه أن أمه وسائر الكائنات الانثية لا تملك على الاطلاق فرفورة ـ وهو ما يمكنه ان يتحقق منه من خلال مثال آنا . وطلبت إليه ان يتخير مناسبة موائمة لتقديم هذا الايضاح الاخير لهانز ، كأن ينتظر منه ان يبادره بسؤال أو أن تبدر عنه ملاحظة يمكن استغلالها لهذا الغرض .

* * *

ان الملاحظات المدونة التالية عن هانز تغطي الفترة الممتدة من الأول من آذار الى السابع عشر منه . وهذا الفاصل الزمني ، الذي امتد لاكثر من شهر ، سنتبين عما قليل علته .

« أعقبت الايضاحات(٥) فترة تتسم بقدر اكبر من الهدوء ، امكن في أثنائها الخروج بهانز دونما صعوبة كبيرة الى النزهة يومياً في شتادبارك . وتحول الخوف من الاحصنة رويداً رويداً الى دافع قهري الى النظر الى الاحصنة . قال : « يتحتم علي ان انظر الى الاحصنة ، وعندئذ أخاف » .

« بعد نزلة وافدة ألزمته الفراش أسبوعين ، تعزز رهابه الى حد بات من المتعذر معه حمله على الخروج . وصار في أحسن الاحوال يخرج الى الشرفة . وفي كل يوم أحد كان يأتي معي الى لاينز(٦) ، لأن العربات في هذا اليوم لا تكون كثيرة في الطرقات(٧) ، ولأن المسافة الى المحطة قصيرة جداً . وفي لاينز رفض مرة ان يذهب للتنزه خارج الحديقة ، لأن

(٥) المتعلقة بدلالة حصره ، وليس بعد بـ « فرفورة » النساء .

(٦) ضاحية في فيينا كان يقيم فها جد هانز وجدته .

(٧) لا ننسَ أن العربات تجرها الأحصنة ، وقد كانت وسيلة النقل الرئيسية في المدن عصرئذ (١٩٠٩) . «م» .

عربة كانت تقف أمامها . وبعد أسبوع آخر اضطر الى قضائه في البيت ، على إثر استئصال لوزتيه ، تعزز الرهاب من جديد على نحو لافت للنظر . كان يخرج الى الشرفة ، ولكن ليس للتنزه ، أي أنه كان يستدير على عقبيه بسرعة حالما يصل الى الباب المفضي الى الطريق .

« في يوم الأحد ، الأول من آذار ، دارت المحادثة التالية في اثناء طريقنا الى المحطة . حاولت من جديد ان أقنع هانز بأن الاحصنة لا تعض . هو : « لكن الاحصنة البيض تعض . في غموندن حصان ابيض يعض . إذا مددت له اصابعك يعض » (ادهشني قوله « اصابعك » بدلاً من « يدك ») . وسرد عندئذ القصة التالية التي أوردها هنا بترابط :

« حين كانت ليزي على وشك الرحيل ، كانت عربة مربوطة الى حصان أبيض تقف أمام بيتها لتحمل أمتعتها الى المحطة (قال هانز ان ليزي فتاة صغيرة تسكن منزلاً مجاوراً) . كان أبوها يقف بجانب الحصان ، فأدار الحصان رأسه (ليلمسه) ، وعندئذ قال ابو ليزي لها : « **لا تضعي أصابعك على الحصان الابيض وإلا عضك** » .

فأجبته عندئذ : « أتعرف ، يخيل إلي أنك لا تقصد أن تتكلم عن حصان ، وانما عن فرفورة لا ينبغي وضع اليد عليها » .

هو : ولكن الفرفورة لا تعض .

انا : لعلها تفعل هذا مع ذلك .

« وعلى الاثر راح هانز يحاول بحدة وحماسة ان يثبت لي ان الامر يتعلق فعلاً بحصان ابيض(٨) .

« في الثاني من آذار قلت لهانز لما ظهرت عليه من جديد أمارات الخوف : « أتعرف ؟ إن **الحماقة** ـ هكذا كان يسمي رهابه ـ ستفقد قوتها

(٨) ما كان لوالد هانز من سبب يدعوه للشك في أن ما رواه هانز هنا لم يكن حادثة واقعية . اما أحاسيس الأكال في حشفة القضيب التي تحمل الأطفال على ملامسته ، فيقال لها في العادة بالألمانية ES BEISST MICH = إنه يعضني .

كلما اكثرت من الخروج للنزهة . وهي ليست قوية الآن إلا لأنك لم تخرج من البيت إذ كنت مريضاً » .

هو : لا ، لا ، انها قوية جداً لأني ما زلت اضع يدي على فرفورتي كل ليلة » .

يتفق الطبيب والمريض ، الأب والابن ، اذن على عزو الدور الرئيسي للأسباب المولدة لحالة هانز المرضية الراهنة الى عادة الاستمناء . غير أن هناك من الدلائل ما يشير الى وجود عوامل اخرى ايضاً .

« في الثالث من آذار جاءتنا خادمة جديدة نالت رضى هانز وإعجابه البالغ . فكانت تدعه يمتطي ظهرها فيما هي تمسح الارضية ، فصار من ثم لا يسميها إلا « حصاني » ويشدها باستمرار من تنورتها صائحاً : « حا دادا ! » . وفي حوالي العاشر من آذار قال لهذه الخادمة : « اذا فعلت هذا الشيء أو ذاك ، فسيتعين عليك أن تخلعي ثيابك كلها ، بما فيها قميصك الداخلي » (كان يفهم ذلك على انه عقوبة ، لكننا نستطيع بسهولة ان نتعرف الرغبة الكامنة وراء ذلك) .

هي : وما همني ؟ سأقول لنفسي بكل بساطة إنه ليس لدي مال لأشتري ملابس .

هو : لكن هذا عيب . تصوري ان الناس سيرون عندئذ فرفورتك ! » .

انه حب الاستطلاع القديم عنده وقد وجهه الى موضوع آخر وبطّنه ـ بما يلائم مرحلة الكبت ـ بنزعة تهذيبية !

« في صبيحة الثالث عشر من آذار قلت لهانز : « أتعرف ، اذا لم تضع يدك بعد الآن على فرفورتك، فإن الحماقة ستغدو بالتأكيد أضعف.

هانز : لكني ما عدت أضع يدي على فرفورتي .

انا : ولكنك ما زلت ترغب في أن تفعل .

هانز : نعم ، هذا صحيح ، لكن **الرغبة غير الفعل** ، و **الفعل غير الرغبة** ... (!!!).

انا : لكن حتى لا تراودك رغبة في ذلك فستنام هذا المساء في كيس.

« اثر ذلك خرجنا الى امام البيت . كان بالطبع خائفاً ، لكنه قال وقد اطمأن على نحو واضح الى ما سيلقاه من مساعدة في صراعه : « اوه ! إذا نمت هذا المساء في كيس ، فإن الحماقة تكون قد زالت غداً » . وبالفعل ، كان خوفه من الاحصنة **اقل بكثير** ، وقد راح ينظر بهدوء نسبي الى العربات وهي تمر أمامه .

« كان هانز قد وعدني بالذهاب معي الى لاينز في يوم الأحد التالي ، الواقع في ١٥ آذار . وقد قاوم في اول الامر ، ثم ما لبث أن صحبني . في الطريق كانت العربات قليلة ، وكان واضحاً أنه يشعر بأنه على أحسن ما يرام ، وقال : « ما أعظم ذكاء الله : فقد قضى على الاحصنة ! » . وفي الطريق شرحت له ان أخته ليس لها فرفورة نظير فرفورته . وقلت له ان البنات الصغيرات والنساء لا فرفورة لهن . وماما ليس لها ، وآنا كذلك ، وهلم جراً .

هانز : وانت ، ألك فرفورة ؟

انا : بالطبع ، ماذا كنت تتصور ؟

هانز (بعد هنيهة صمت) : كيف تفرفر البنات الصغيرات اذن ، ان لم يكن لهم فرفورة ؟

انا : ليس لهن فرفورة مثل فرفورتك . ألم تلاحظ ذلك عند تحميم آنا ؟

« بقي طوال النهاية في غاية من المرح ، وتزحلق على الجليد ، الخ . ولم يعاوده الاكتئاب إلا مساء ، وبدا عليه الخوف من الاحصنة .

« في ذلك المساء كانت النوبة العصبية والحاجة الى التدلع اقل بروزاً مما في الايام السابقة . وفي اليوم التالي اخذته أمه معها الى المدينة ، فأصابه رعب شديد في الشوارع . وفي اليوم التالي لزم البيت ، وكان في غاية المرح . وفي صبيحة اليوم الثالث استيقظ في حوالي الساعة السادسة فريسة لحصر شديد . ولما سألناه ما به ، روى قائلاً :

كلما اكثرت من الخروج للنزهة . وهي ليست قوية الآن إلا لأنك لم تخرج من البيت إذ كنت مريضاً » .

هو : لا ، لا ، انها قوية جداً لأني ما زلت اضع يدي على فرفورتي كل ليلة » .

يتفق الطبيب والمريض ، الأب والابن ، اذن على عزو الدور الرئيسي للأسباب المولدة لحالة هانز المرضية الراهنة الى عادة الاستمناء . غير أن هناك من الدلائل ما يشير الى وجود عوامل اخرى ايضاً .

« في الثالث من آذار جاءتنا خادمة جديدة نالت رضى هانز وإعجابه البالغ . فكانت تدعه يمتطي ظهرها فيما هي تمسح الارضية ، فصار من ثم لا يسميها إلا « حصاني » ويشدها باستمرار من تنورتها صائحاً : « حا دادا ! » . وفي حوالي العاشر من آذار قال لهذه الخادمة : « اذا فعلت هذا الشيء أو ذاك ، فسيتعين عليك أن تخلعي ثيابك كلها ، بما فيها قميصك الداخلي » (كان يفهم ذلك على انه عقوبة ، لكننا نستطيع بسهولة ان نتعرف الرغبة الكامنة وراء ذلك) .

هي : وما همني ؟ سأقول لنفسي بكل بساطة إنه ليس لدي مال لأشتري ملابس .

هو : لكن هذا عيب . تصوري ان الناس سيرون عندئذ فرفورتك ! » .

انه حب الاستطلاع القديم عنده وقد وجهه الى موضوع آخر وبطّنه ـ بما يلائم مرحلة الكبت ـ بنزعة تهذيبية !

« في صبيحة الثالث عشر من آذار قلت لهانز : « أتعرف ، اذا لم تضع يدك بعد الآن على فرفورتك، فإن الحماقة ستغدو بالتأكيد أضعف.

هانز : لكني ما عدت أضع يدي على فرفورتي .

انا : ولكنك ما زلت ترغب في أن تفعل .

هانز : نعم ، هذا صحيح ، لكن الرغبة غير الفعل ، و الفعل غير الرغبة ... (!!!).

انا : لكن حتى لا تراودك رغبة في ذلك فستنام هذا المساء في كيس.

« اثر ذلك خرجنا الى امام البيت . كان بالطبع خائفاً ، لكنه قال وقد اطمأن على نحو واضح الى ما سيلقاه من مساعدة في صراعه : « اوه ! إذا نمت هذا المساء في كيس ، فإن الحماقة تكون قد زالت غداً » . وبالفعل ، كان خوفه من الاحصنة **اقل بكثير** ، وقد راح ينظر بهدوء نسبي الى العربات وهي تمر أمامه .

« كان هانز قد وعدني بالذهاب معي الى لاينز في يوم الأحد التالي ، الواقع في ١٥ آذار . وقد قاوم في اول الامر ، ثم ما لبث أن صحبني . في الطريق كانت العربات قليلة ، وكان واضحاً أنه يشعر بأنه على أحسن ما يرام ، وقال : « ما أعظم ذكاء الله : فقد قضى على الاحصنة ! » . وفي الطريق شرحت له ان أخته ليس لها فرفورة نظير فرفورته . وقلت له ان البنات الصغيرات والنساء لا فرفورة لهن . وماما ليس لها ، وآنا كذلك ، وهلم جراً .

هانز : وانت ، ألك فرفورة ؟

انا : بالطبع ، ماذا كنت تتصور ؟

هانز (بعد هنيهة صمت) : كيف تفرفر البنات الصغيرات اذن ، ان لم يكن لهم فرفورة ؟

انا : ليس لهن فرفورة مثل فرفورتك . ألم تلاحظ ذلك عند تحميم آنا ؟

« بقي طوال النهاية في غاية من المرح ، وتزحلق على الجليد ، الخ . ولم يعاوده الاكتئاب إلا مساء ، وبدا عليه الخوف من الاحصنة .

« في ذلك المساء كانت النوبة العصبية والحاجة الى التدلع اقل بروزاً مما في الايام السابقة . وفي اليوم التالي اخذته أمه معها الى المدينة ، فأصابه رعب شديد في الشوارع . وفي اليوم التالي لزم البيت ، وكان في غاية المرح . وفي صبيحة اليوم الثالث استيقظ في حوالي الساعة السادسة فريسة لحصر شديد . ولما سألناه ما به ، روى قائلاً :

« وضعت إصبعي ، ولكن قليلاً جداً ، على فرفورتي . عندئذ رأيت ماما عارية تماماً في قميصها الداخلي ، وتركتني أرى فرفورتها . أريت غريتا[٩] ، غريتتي ، ما كانت تفعله ماما ، وأريتها فرفورتي . حينئذ أبعدت يدي بسرعة عن فرفورتي » . ولما اعترضت عليه بقولي إنه اما ان يكون رآها في قميصها الداخلي أو عارية تماماً ، اجاب هانز : « كانت في قميصها الداخلي ، لكن القميص كان قصيراً جداً فرأيت فرفورتها » .

« لم يكن ذلك كله حلماً ، بل تخييلاً استمنائياً ، وهو على كل حال مكافىء للحلم . وبديهي أن ما جعل هانز أمه تفعله كان يفيده في تبرير ذاته : « ان كانت ماما تعرض فرفورتها ، فباستطاعتي ان أفعل مثلها » .

ان هذا التخييل يشف لنا عن شيئين ؛ أولهما ان تأنيبات أمه كان لها ، في حينها ، تأثير بالغ على هانز ، وثانيهما أن الشروح التي قُدمت له عن عدم وجود فرفورة لدى النساء لم تلق للوهلة الأولى قبولاً عنده . فقد أسف لأن الأمر كذلك ، وتشبث في مخيلته بوجهة نظره السابقة . وربما كان لديه ايضاً من الاسباب ما حمله على رفض تصديق والده في بداية الأمر .

التقرير الاسبوعي
لوالد هانز

« استاذي العزيز ، أرفق ضمناً تتمة قصة هانز ـ وهي نبذة عظيمة الاهمية . لعلي سأبيح لنفسي أن أحضر يوم الاثنين القادم لاستشارتك ، وأن آتي معي بهانز اذا امكن ـ بشرط أن يقبل بالمجيء . لقد سألته اليوم : « أتريد أن تأتي معي الى عند **الاستاذ** الذي سيخلصك من « حماقتك » ؟

(٩) غريتا هي واحدة من البنات الصغيرات في غموندن ، وحولها يبني تخييلاته . وهو يثرثر ويلعب معها .

هو : كلا .

انا : لكن له بنتاً صغيرة جميلة جداً .

« وعلى الاثر وافق هانز وهو مسرور .

« الأحـد ٢٢ آذار . اقترحت على هانز ، رغبة مني في توسيع برنامج يوم الاحد ، ان نذهب اولاً الى شونبرون ، وان ننتظر العصر لنذهب من هناك إلى لاينز . وعلى هذا ، كان عليه ان يسير على قدميه ، لا من بيتنا الى محطة الجمارك المركزية في شتاتبان[١٠] فحسب ، بل كذلك من محطة هيتزينغ[١١] الى شونبرون ، ومن هناك من جديد الى محطة الترام البخاري في هيتزينغ . وقد امكن له أن يقطع هذه المسافة كلها ، محولاً عينيه بسرعة ، وقد أخذه رعب ظاهر ، كلما رأى أحصنة تمر وكان بعمله هذا يتقيد بنصيحة أسدتها إليه أمه .

« في شونبرون انتابه الخوف من بعض الحيوانات التي كان يتأملها فيما سبق بلا خوف . ومن ذلك أنه أبى إباء باتراً الدخول إلى جناح **الزرافة** ، وأبى كذلك ان يذهب لرؤية الفيل الذي كان يسليه الى أقصى حد في العادة . وقد انتابه الخوف من جميع الحيوانات الكبيرة ، بينما طاب له مرأى الحيوانات الصغيرة . ومن بين الطيور كان البجع هو الذي أخافه هذه المرة ، بسبب حجمه ايضاً بطبيعة الحال ، وهذا أمر لم يحدث له من قبل قط .

« قلت عندئذ لهانز : أتعرف لماذا تخاف من الحيوانات الكبيرة ؟ ان للحيوانات الكبيرة فرفورة كبيرة ، وانت تخاف في الواقع من الفرفورات الكبيرة .

هانز : لكنني لم أر الى الآن فرفورة الحيوانات الكبيرة[١٢] .

(١٠) محطة الجمارك المركزية لسكة الحديد المحلية لضواحي فيينا . «م» .

(١١) ضاحية مجاورة لقصر شونبرون . «م» .

(١٢) هذا غير صحيح. انظر تعجب هانز أمام قفص الأسد، ص١٣. وهذه في أغلب الظن بداية « النسابة » الناجمة عن الكبت .

انا : لكنك رأيت فرفورة الحصـان ، والحصان حيـوان كبير بالتأكيد .

هانز : أوه ! فرفورة الحصان ، كثيراً ! مرة في غموندن ، حين كانت العربة واقفة امام الباب ، ومرة اخرى امام الجمارك المركزية .

انا : حينما كنت صغيراً ، فالارجح انك دخلت الى اصطبل ..

هانز (مقاطعاً لي) : أجل ، في غموندن كنت اذهب يومياً الى الاصطبل ساعة رجوع الاحصنة الى البيت .

انا :... وأرجح الظن انك ارتعبت لما رأيت مرة فرفورة الحصان الكبيرة . لكن ما كان عليك أن تخاف . فالحيوانات الكبيرة لها فرفورات كبيرة ؛ والحيوانات الصغيرة لها فرفورات صغيرة .

هانز : وجميع الناس لهم فرفورة ، وفرفورتي ستكبر معي ، عندما اكبر ، لأنها ثابتة في مكانها .

« هنا انتهت محادثتنا . وفي الايام التالية بدا خوفه وكأنه ازداد من جديد بعض الشيء ؛ وصار هانز لا يجازف إلا بعد لأي بالخروج إلى امام باب البيت ، حيث يُقتاد اليه بعد الغداء » .

ان كلمات العزاء الاخيرة التي وجهها هانز الى نفسه تسلط ضوءاً على الموقف وتتيح أن نجري بعض التصحيح على توكيدات أبيه . فصحيح ان هانز يخاف من الحيوانات الكبيرة لأنه يجد نفسه مكرهاً على التفكير بفرفورتها. لكن لا يسعنا القول حقاً انه يخاف من الفرفورة الكبيرة بحد ذاتها . ففي السابق كانت فكرة الفرفورة الكبيرة فكرة سارة له حقاً ، وكان يسعى بكل قواه الى ان يلمح واحدة . لكن هذه اللذة فسدت بالنسبة اليه مذذاك فصاعداً ، وهذا بنتيجة الانقلاب العام للذة الى تنغيص ، وهو الانقلاب الذي أصاب ، على نحو لا تفسير له بعد ، كل تنقيبه الجنسي ، وكذلك ـ وهو ما يبدو لنا اكثر وضوحاً ـ بنتيجة بعض الخبرات والتفكرات التي افضت الى نتائج مؤلمة . ان تعزية هانز لنفسه : « فرفورتي ستكبر معي ، عندما اكبر » ، تتيح لنا ان نستنتج ان

هانز ما انفك ، في اثناء ملاحظاته ومشاهداته ، يعقد المقارنات ، وأنه لم يكن راضياً عن حجم فرفورته . وكانت الحيوانات الكبيرة تذكره بهذه النقيصة ، ولهذا كان يستكره مرآها . ولكن بما ان كل سلسلة الأفكار هذه لا تقتدر ، في أرجح الظن ، على ان تصير شعورية الى حد واضح ، فإن ذلك الاحساس المؤلم انقلب بدوره الى حصر ، بحيث يكون حصر هانز الراهن انبنى على الشيئين كليهما : لذته السابقة وألمه الحاضر . ومتى ما قامت حالة حصر ، يبتلع الحصر جميع المشاعر الأخرى ؛ ومع تقدم الكبت ، وطرداً مع هبوط التمثلات المشحونة وجدانياً الى اللاشعور ، بعد ان كانت شعورية ، تغدو جميع الوجدانات قابلة للتحول الى حصر .

ان ملاحظة هانز الغريبة : « لأنها ثابتة في مكانها » ، تتيح لنا ، بإرجاعها الى جملة أقواله العزائية ، ان نحزر كثرة من الاشياء التي لا يسعه التعبير عنها ، والتي لم يعبر عنها على كل حال في اثناء هذا التحليل . وسأسد جزئياً هذه الثغرة بالاستناد الى ما كسبته من خبرة في تحليل الراشدين ، لكني آمل الا يُعتبر تأويلي هذا مبتسراً أو تعسفياً . فإن تكن فكرة « لأنها ثابتة في مكانها » ضرباً من العزاء والتحدي ، فإنها تذكّرنا بالتهديد القديم الذي تلقاه هانز من أمه حينما قالت له إنها ستبعث في طلب من يقطع له فرفورته ان استمر يعبث بها . وقد بقي هذا التهديد ، الذي واجهه هانز يوم كان له من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة ، غير ذي مفعول آنئذ ، إذ أجاب هانز بطمأنينة إنه سيتبول حالتئذ من « طزطوزته » . وإنه لأمر مألوف تماماً أن لا يفعل تهديد الخصاء فعله إلا آجلاً ، وأن لا يقع هانز فريسة الحصر من ان يفقد ذلك الجزء الثمين من أناه إلا بعد مرور عام واحد وثلاثة أشهر . وفي مقدورنا ان نلحظ ، في حالات مرضية اخرى ، مثل هذه المفاعيل الآجلة لأوامر وتهديدات صادرة في عهد الطفولة ، إذ يمتد الفاصل الزمني بين الأمر او التهديد وبين مفعوله عشراً من السنين او اكثر . بل إني لأعرف حالات

كان فيها لـ « الطاعة المؤجلة » بتأثير الكبت الدور الرئيسي في تعيين الأعراض المرضية .

أما الايضاحات التي قُدمت مؤخراً الى هانز بخصوص انعدام وجود فرفورات لدى النساء فلا يمكن إلا ان تكون زعزعت ثقته بنفسه وايقظت عقدته الخصائية . ولهذا تمرد على هذه الايضاحات ، ولهذا لم تتمخض عن نتائج علاجية . أتوجد حقاً مخلوقات لا فرفورة لها ؟ اذن فليس أمراً بعيداً الى هذا الحد عن التصديق أن يكون في المستطاع تجريده من فرفورته ، وتحويله ، أن جاز القول ، الى امرأة(١٣) .

* * *

« في ليلة السابع والعشرين الى الثامن والعشرين فاجأنا هانز بنهوضه من سريره في قلب الليل وبقدومه للانضمام الينا في سريرنا . كانت حجرة صغيرة تفصل غرفته عن غرفتنا . وسألناه لماذا فعل ذلك ، وهل هو خائف . فأجاب : « كلا ، سأخبركما بذلك غداً » . ونام في سريرنا ، ثم حملناه بعد ذلك الى سريره .

---

(١٣) لا استطيع أن اقطع هنا مجرى هذا العرض لأبيِّن كم هي نمطية هذه السلسلة اللاشعورية من الأفكار التي أعزوها هنا الى هانز الصغير . فعقدة الخصاء هي الجذر اللاشعوري الأعمق للاسامية ، لأن الصبي الصغير يسمع ، حتى وهو في دار الحضانة ، أن اليهودي يُقتطع شيء ما من قضيبه ، فيدير الفكرة في رأسه على النحو التالي : قطعة من القضيب ، وهذا ما يخوله الحق في احتقار اليهودي . وليس ثمة من جذر لاشعوري أعمق أيضاً للاحساس بالتفوق على النساء . ان الفيلسوف الشاب فايننغر ، الذي كان رفيع الموهبة وإن كان يعاني أيضاً من اضطرابات جنسية ، والذي انتحر بعد أن فرغ من كتابه العجيب : **الجنس والطبع** ، قد عامل في فصل كان له وقع كبير من كتابه هذا اليهود والنساء بقدر متعادل من العدائية ، وصب عليهم جميعاً مسباته . ولقد كان فايننغر ، كمريض بالأعصاب ، تحكمه عقدة الطفلية ؛ ومن هذا المنظور كان الارتباط بعقدة الخصاء هو القاسم المشترك بين اليهودي والمرأة (راجع تحليل فرويد للاسامية في الفصل الثالث من كتابه **موسى والتوحيد** ، الصادرة ترجمته العربية عن دار الطليعة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨٢ . «م») .

« في اليوم التالي استجوبت هانز لأتبين سبب قدومه للانضمام الينا في اثناء الليل ، وبعد شيء من المقاومة من جانبه دار بيننا الحوار التالي الذي دونته حالاً بطريقة الاختزال :

هو : **كان في الغرفة زرافة كبيرة وزرافة مدعوكة ، وقد صاحت الكبيرة لأنني اخذت منها المدعوكة . بعدئذ توقفت عن الصياح ، وعندئذ جلست على الزرافة المدعوكة .**

انا (متحيراً) : ماذا ؟ زرافة مدعوكة ؟ كيف ذلك ؟

هو : بلى (ذهب وأتى بسرعة بقطعة من الورق ، ودعكها وقال): « كانت مدعوكة هكذا » .

انا : وجلست على الزرافة المدعوكة ؟ كيف ؟

« فأراني ذلك من جديد بجلوسه على الارض .

انا : لماذا جئت الى غرفتنا ؟

هو : انا نفسي لا أعرف .

انا : هل خفت ؟

هو : كلا . بالتأكيد لا !

انا : هل حلمت بتلك الزرافات ؟

هو : كلا ، لم أحلم . تخيلت ذلك . تخيلت ذلك كله . كنت قد استيقظت من قبل .

انا : ماذا تعني : زرافة مدعوكة ؟ أنت تعلم أنه ليس في المستطاع كرمشة الزرافة باليد وكأنها قطعة ورق .

هو : أعلم ، وإنما تخيلت الأمر فقط . مؤكد ان لا وجود لذلك حقاً(١٤) . كانت المدعوكة متمددة على الأرض تماماً ، وقد حملتها ، اخذتها بيدي .

انا : عجباً ! كيف امكنك ان تأخذ زرافة كبيرة كتلك بيديك ؟

---

(١٤) بجلاء كبير يعبر هانز هكذا بطريقته الخاصة عن أن الأمر كان مجرد تخييل.

هو : المدعوكة ، اخذتها بيدي .

انا : اين كانت الكبيرة في اثناء ذلك ؟

هو : الكبيرة كانت تقف على بعد قليل .

انا : ماذا فعلت بالمدعوكة ؟

هو: أمسكتها بيدي لوقت قليل ، إلى ان انتهت الكبيرة من الصياح، وحين انتهت الكبيرة من الصراخ ، جلست فوقها .

انا : لماذا صاحت الكبيرة ؟

هو : لأنني أخذت منها الصغيرة (لاحظ أنني أدون كل شيء وسأل : « لماذا تكتب ذلك » ؟) .

انا : لأنني سأرسله الى أستاذ يستطيع أن يخلصك من **حماقتك** .

هو : آه ! اذن فقد كتبت أيضاً ان ماما خلعت قميصها ، وسوف ترسل ذلك أيضاً الى الاستاذ .

انا : أجل ، لكنه لن يفهم كيف يمكنك ان تتصور انه في الإمكان دعك زرافة .

هو : قل له فقط انني انا نفسي لا أعرف ، ولن يسأل شيئاً ؛ ومع ذلك ، ان سأل ما هي الزرافة المدعوكة ، ففي استطاعته عندئذ ان يكتب الينا وسوف نجاوبه ، او فلنكتب له حالاً أنني انا نفسي لا اعرف .

انا : ولكن لماذا جئت الينا ليلاً ؟

هو : لا أعرف .

انا : قل لي بسرعة بأي شيء تفكر ؟

هو (بشيء من الدعابة) : بشراب التوت .

انا : وبماذا أيضاً ؟

هو : ببندقية لقتل الناس[١٥] .

رغباته

(١٥) يحاول الأب ، في حيرته ، أن يستخدم التقنية التقليدية للتحليل النفسي . وهي لم تفض به الى شيء يذكر ، غير ان ما تمخضت عنه يمكن مع ذلك ان يكتسب اهمية على ضوء كشوف لاحقة .

انا : أمتأكد انك لم تحلم بذلك ؟

هو : بالتأكيد لا ، انا متأكد تماماً .

« واستطرد يقول : « رجتني ماما طويلاً أن أخبرها لماذا أتيت اليكما ليلاً . لكني لم أشأ إخبارها ، لأنني أولاً كنت أشعر بالخجل أمام ماما » .

انا : لماذا ؟

هو : لا أدري .

« وبالفعل ، كانت زوجتي قد استجوبته طوال الصباح الى ان روى لها قصة الزرافات » .

في اليوم نفسه اهتدى ابو هانز الى حل تخييل الزرافات :

« الزرافة الكبيرة هي أنا ـ او بالاحرى القضيب الكبير (العنق الطويل) ؛ والزرافة المدعوكة ، هي زوجتي ، أو بالاحرى عضوها التناسلي ، وهذا ما ينم عما كانته نتيجة تلك الايضاحات التي قدمتها الى هانز » .

« الزرافة : ارجع الى النزهة في شونبرون . وفضلاً عن ذلك كان قد علق فوق سريره صورة لزرافة وفيل » .

« المشهد برمته تكرر بصورة شبه يومية في صبيحة كل يوم من الأيام القليلة الماضية . فهانز يأتي للانضمام الينا في ساعة مبكرة من الصباح ، وزوجتي لا تستطيع ان تقاوم أخذه الى سريرها بضع دقائق . وأبدأ عندئذ دوماً بتنبيهها الى عدم جواز اخذه على هذا النحو الى سريرها (« صاحت الكبيرة لأنني أخذت منها الزرافة المدعوكة ») ، وكانت زوجتي تجيب احياناً ، وبشيء من الاحتداد ، أن هذا سخف ، وأن دقيقة واحدة لا يمكن ان تسبب ضرراً ، وما الى ذلك . وعندئذ يبقى معها هانز لهنيهة من الزمن (« بعدئذ توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح ، وعندئذ جلست على الزرافة المدعوكة ») .

« وتفسير هذا المشهد الزواجي ، المنقول الى حياة الزراف ، هو

التالي على هذا الاساس : لقد استبد بهانز في الليل الحنين الى أمه ، وإلى مداعباتها ، والى عضوها التناسلي ، ولهذا جاء الى غرفتنا . والأمر برمته استمرار لخوفه من الاحصنة » .

لن أضيف إلى تأويل الأب النافذ إلا هذا : فأرجح الظن ان « الجلوس فوق » هو عند هانز تمثيل لفعل **الامتلاك**(١٦) . والأمر كله تخييل تحدٍ ، مرتبط باغتباطه بالانتصار على المقاومة الابوية . « لك ان تصيح ما شئت ، فماما ستأخذني على كل حال الى فراشها ، وماما ملكي انا ! » . وما ذهب اليه ظن الأب يبدو هنا معقولاً : خوف هانز من ان أمه لا تحبه ، لأن فرفورته ليست بقابلة للمقارنة مع فرفورة أبيه .

في صبيحة اليوم التالي تسنى للأب أن يتحقق من صحة تأويله :

« في يوم الأحد ، ٢٩ آذار ، ذهبت مع هانز إلى لاينز . عند الباب استأذنت زوجتي بالذهاب وقلت لها مازحاً : « إلى اللقاء ، ايتها الزرافة الكبيرة ! » . فسأل هانز : « لماذا زرافة ؟ » . فقلت : « ماما هي الزرافة الكبيرة » . وعلى الاثر قال هانز : « أليس كذلك ؟ وآنا هي الزرافة المدعوكة ؟ » .

« في القطار شرحت له تخييل الزرافات ، فما كان منه إلا ان قال : « نعم ، هذا صحيح » . ولما قلت له إنني أنا الزرافة الكبيرة ، وان العنق الطويل ذكره بالفرفورة ، أجاب : « لماما أيضاً عنق كالزرافة ، وقد رأيتها حينما كانت تغسل عنقها الابيض »(١٧) .

« في يوم الاثنين ، ٣٠ آذار ، قدم هانز إلي صباحاً وقال : « أتعرف ، لقد تخيلت شيئين هذا الصباح » . ـ « الاول ؟ » ـ . « انا

---

(١٦) إن في الالمانية صلة اشتقاقية بين فعل امتلك BESITZEN وفعل جلس SITZENS . «م» .

(١٧) يؤكد هانز هنا فقط صحة تأويل الزرافتين على انهما الأب والأم ، لا صحة الرمزية الجنسية التي تمثل بمقتضاها الزرافة عينها القضيب . هذه الرمزية هي بلا ادنى ريب صحيحة ، ولكن ليس لنا أن نطلب من هانز المزيد .

معك في شونبرون ، حيث هناك الخراف ، وعندئذ تسللنا من تحت الحبال ، ثم اخبرنا بذلك رجل الشرطة الذي يقف عند باب الحديقة ، فأوقفونا نحن الاثنين » . أما الشيء الثاني فقد نسيه هانز .

« سأسجل هنا الملاحظة التالية ، وهي اننا عندما شئنا ان نذهب للتفرج على الخراف ، كان ذلك الجزء من الحديقة مقفلاً بحبل ، مما حال بيننا وبين الدخول . وقد دهش هانز كثيراً من إقفال جزء من الحديقة بمجرد حبل يمكن التسلل من تحته بسهولة . فقلت له ان الناس المهذبين لا يمرون من تحت الحبال . فقال إن ذلك سهل جداً ، فأجبته إنه من الممكن ان يتدخل عندئذ رجل الشرطة فيقتادنا . وعند مدخل شونبرون كان يقف حارس من الشرطة ، وقد قلت عنه مرة لهانز إنه يقبض على أشقياء الاطفال .

« لدى عودتنا من زيارتنا لك ، وهي التي تمت في اليوم نفسه ، اعترف هانز برغبة اخرى في فعل شيء ممنوع : « أتعرف ، هذا الصباح تخيلت شيئاً آخر ايضاً » . ـ « ما هو ؟ » . ـ « كنت معك في القطار ، فكسرنا زجاج نافذة ، واقتادنا رجل الشرطة » .

تلك كانت تتمة مناسبة تماماً لتخييل الزرافات . فهانز يشتبه في أنه من المحظور امتلاك الأم ؛ فقد اصطدم بحاجز المحارم . لكنه يعتقد ان الشيء محظور بحد ذاته . لذا فإن أباه يكون معه دائماً ويوقف معه في جميع المغامرات المحظورة التي يأتي بها في مخيلته . فهو يحسب ان أباه يفعل مع أمه ذلك الشيء المحظور الغامض الذي يستعيض عنه بفعل من أفعال العنف كتحطيم زجاج نافذة أو اقتحام مكان مغلق عنوة.

في عصر ذلك اليوم قدم الأب والابن لمقابلتي في عيادتي . وكنت أعرف من قبل هذا الفتى الصغير الظريف ، وكان ، على اعتداده بنفسه ، لطيفاً للغاية ، فكنت في كل مرة أسر لرؤيته . لست أدري ان كان يذكرني ، ولكنه سلك سلوكاً لا غبار عليه وكأنه عضو عاقل تماماً من أعضاء المجتمع البشري . ولم تدم الاستشارة طويلاً . استهلها الأب

بالقول إنه ، بالرغم من كل ما قدمه من ايضاحات لهانز ، لم ينقص خوفه من الاحصنة . ولم يكن لنا مناص من أن نقر أيضاً بأن العلاقات كانت ضئيلة للغاية بين الاحصنة التي يخافها وبين صبواته الحبية التي تكشفت تجاه أمه . وبعض التفاصيل التي علمتها إذ ذاك ـ ومنها أنه كان يتضايق جداً مما يوضع حول عيون الاحصنة ومن السواد حول الفم ـ ولم تكن قابلة للتفسير بالتأكيد بما كنا نعرفه . ولكن فيما كنت انظر الى الأب والابن كليهما ، وهما جالسان أمامي ، وأصغي الى وصف هانز « لأحصنته المثيرة لقلقه » ، تبادر الى ذهني على نحو مفاجىء جزء جديد من حل المعضلة ، وهو جزء أفهم أن يكون قد أفلت من الأب تحديداً . سألت هانز بلهجة مازحة عما اذا كانت أحصنته تضع « عوينات »[١٨] ، فأنكر ذلك ، ثم عما اذا كان ابوه يضع عوينات ، فأنكر أيضاً بكل بداهة ؛ وسألته أخيراً عما اذا كان يقصد بالسواد حول « الفم » الشارب ؛ وكشفت له عندئذ أنه يخاف أباه على وجه التحديد لأنه يحب امه حباً جماً . وقلت له إنه لا بد ان يكون تصور ان أباه غاضب عليه لهذا السبب ، ولكن هذا غير صحيح ، فأبوه يحبه ، وبوسعه ان يفضي اليه بكل شيء دونما خوف . وقلت له أيضاً انني ، قبل ان يأتي الى العالم بزمن طويل ، كنت أعلم أن هانزاً صغيراً سوف يولد يوماً وسيكون مغرماً بأمه الى حد سيرغمه فيما بعد على أن يخاف من أبيه ، إنني أعلمت اباه بذلك. عندئذ قاطعني والد هانز قائلاً : « لماذا تعتقد انني غاضب عليك ؟ هل وبختك أو ضربتك يوماً ؟ » . فقال هانز مصححاً : «اوه ! نعم ، لقد ضربتني » . ـ « هذا غير صحيح . متى كان ذلك ؟ » . ـ « هذا الصباح » ، اجاب الصبي الصغير . وتذكر أبوه ان هانز كان نطحه برأسه على نحو مباغتٍ في بطنه ، فضربه بيده على سبيل رد الفعل غير الارادي . وإنه لأمر يدعو الى الاستغراب الا يكون الأب قد

(١٨) العوينات BINOCLES : نظارات توضع على الأنف دون الأذنين . «م» .

سجل هذا التفصيل ضمن السياق الاجمالي للعصاب ؛ على أنه تنبه له الآن ، بوصفه تعبيراً عن موقف الطفل العدائي منه ، وربما أيضاً بوصفه تعبيراً عن الحاجة الى أن يُعاقب على ذلك[١٩] .

سأل هانز أباه وهما في طريق العودة من عندي : « هل يتكلم الاستاذ مع الله بحيث يمكنه ان يعرف كل ذلك سلفاً ؟ » . وكنت سأكون عظيم الفخر بهذه الشهادة الصادرة على لسان طفل ، لولا أني كنت استثرتها بنفسي بتفاخري الفكه .

ابتداء من يوم تلك الاستشارة تلقيت تقارير شبه يومية عن التغيرات الطارئة على حالة المريض الصغير . وما كان لنا ان نتوقع أن تخلصه ايضاحاتي دفعة واحدة من حصره ، لكن غدا من الواضح ان الامكانية باتت متاحة له الآن ليخرج الى النور منتجاته اللاشعورية وليعمل على تصفية رهابه . وابتداء من ذلك الحين مضى ينفذ برنامجاً امكنني ان أتنبأ به سلفاً لأبيه .

« في الثاني من نيسان طرأ **أول تحسن حقيقي** جدير بالتسجيل. فعلى حين اننا ما كنا نستطيع في السابق ان نحمله على الخروج لبعض الوقت متخطياً الباب الخارجي ، وعلى حين أنه كان يرتد على عقبيه الى البيت مهرولاً كلما اقتربت أحصنة ، وقد بدت عليه كل أمارات الخوف ، لبث هذه المرة ساعة كاملة أمام الباب الخارجي ، حتى في اثناء مرور العربات ، وهو أمر كثير الحدوث امام منزلنا . صحيح أنه كان بين الحين والآخر يجري عائداً الى البيت إذا ما ابصر بعربة قادمة من بعيد ، ولكنه سرعان ما كان يرجع القهقرى وكأنه عدل عن رأيه . ومهما يكن من أمر ، لم يعد من الحصر إلا بقية ، والتقدم الذي تم إحرازه منذ الايضاحات ليس مما يمكن تجاهله .

(١٩) كرر الطفل فيما بعد هذا المسلك تجاه أبيه على نحو اوضح واكمل ، إذ كان يضرب اباه اولاً على يده ، ثم يقبل بحنان وعطف هذه اليد نفسها .

« في المساء قال : « ما دمنا سنذهب الآن الى امام الباب الخارجي ، فسنذهب أيضاً الى شتادبارك».

« في الثالث من نيسان جاء في ساعة مبكرة الى سريري ، على حين كان في الايام السابقة قد امتنع عن المجيء ، بل كان يبدو عليه الفخر لامتناعه هذا . سألته: «لماذا جئت اليوم؟»:

هانز : حينما لن أعود اخاف فلن أجيء ابداً .

انا : اذن فقد جئت الي لأنك خائف ؟

هانز : حينما لا اكون معك اخاف ؛ وحينما لا اكون في السرير معك ، فعندئذ اكون خائفاً . عندما لن اعود أخاف فلن أجيء ابداً .

انا : اذن فأنت تحبني ، وانت تخاف عندما تكون في سريرك صباحاً ، ولهذا تأتي إلي ؟

هانز : نعم . لماذا قلت لي إنني أحب **ماما** وإنني لهذا السبب اخاف ، مع انني أحبك **انت** ؟ » .

يدلل الصبي الصغير هنا على درجة في وضوح الرؤية نادرة حقاً. فهو يتيح لنا ان ندرك ان حبه لأبيه يصطرع في داخله مع عدائه له بسبب الدور الذي يضطلع به كغريم له لدى الأم ، وهو يلوم والده على أنه لم يتوجه بانتباهه بعد الى صراع القوى هذا الذي لم يكن مناص من ان يفضي الى حصر . والواقع ان الأب لم يكن يفهمه بعد تمام الفهم ، لأنه لم يفلح ، في اثناء ذلك الحديث ، إلا بالاقتناع بعدائية الصبي الصغير تجاهه ، على نحو ما كنت اكدته له في اثناء زيارتهما لاستشارتي . وما سيلي ـ وسأنسخه بدون أي تغيير ـ هو في الحقيقة أكثر اهمية بخصوص تقدم الفهم عند الأب منه بالنسبة الى المريض الصغير .

« من سوء الحظ انني لم أفهم للحال معنى ذلك اللوم . فلأن هانز يحب أمه ، فمن الواضح أنه يتمنى لو أنني لم اكن موجوداً ، فعندئذ كان سيأخذ مكان أبيه . وهذه الرغبة العدائية المكبوحة تتحول الى حصر بخصوص ما يقع لي ، ولذا يأتيني صباحاً ليرى ان كنت رحلت . من

سوء الحظ انني لم أفهم ذلك وقتئذ ، بل قلت له :

انا : اذن عندما تكون وحيداً ، يأخذك القلق علي ، وتأتي لتراني .

هانز : عندما لا تكون هنا ، فإني اخاف الا ترجع الى البيت .

انا : هل هددتك مرة بأنني لن أرجع الى البيت ؟

هانز : انت لا ، بل ماما . ماما قالت لي إنها لن ترجع الى البيت (ارجح الظن أنه كان أتى فعلاً من أفعال شقاوة فهددته بأن ترحل).

انا : قالت ذلك بسبب شقاوتك .

هانز : نعم .

انا : انت تخاف اذن من ان أرحل بسبب ما كان من شقاوتك ، ولهذا تأتي لتراني .

« عندما كنت أهم بالنهوض عن المائدة بعد طعام الافطار ، قال هانز : « بابا ، ابق ! لا تذهب **عدْواً** ! » . عجبت لقوله « عدواً »[٢٠] بدلاً من « ركضاً » ، وأجبت : « أوه ، أنت تخاف من ان يتركك الحصان » . فما كان منه إلا ان ضحك » .

اننا نعلم ان لهذا الجزء من حصر هانز مقوِّمين اثنين : الخوف **من** الاب والخوف **على** الأب . والاول ناشيء عن عدائه لأبيه ، والثاني عن الصراع بين الحب ـ المغالى فيه هنا من قبيل رد الفعل ـ وبين العداء .

تابع الأب يقول : « تلك بلا ريب بداية مرحلة مهمة . فهو ان كان يجازف في أحسن الاحوال بالخروج الى امام البيت ، وان كان لا يجرؤ مع ذلك على الابتعاد عن البيت ، بل يقفل راجعاً في منتصف الطريق حالما تنتابه مشاعر الحصر الاولى ، فالدافع الى ذلك كله خوفه من ألا يجد والديه في البيت إذ يكونان قد رحلا . انه يبقى لصيقاً بالبيت بسبب حبه لأمه ؛ ويخاف من رحيلي عنه بسبب الرغبات العدائية التي يكنّها ضدي ، وذلك لأن رحيلي انا يعني أن يصير هو الأب .

(٢٠) العدو : جري الفرس السريع . «م» .

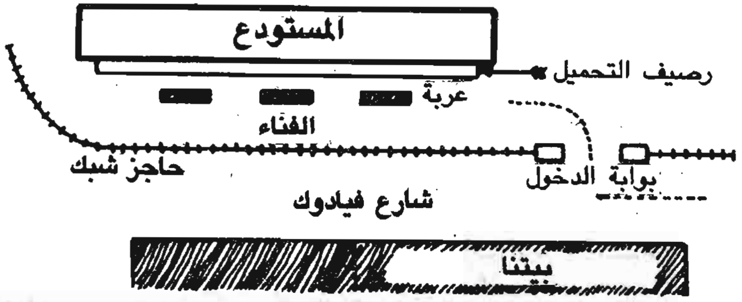
« كنت في الصيف المنصرم قد اضطررت في عدة مناسبات الى مغادرة غموندون الى فيينا بسبب أعمالي ، وكان يصير عندئذ هو الأب . وسأعود فأذكر بأن خوفه من الاحصنة يرتبط بواقعة من ايام غموندن ، حينما كان يتعين على حصان ان يحمل الى المحطة أمتعة ليزي . فالرغبة المكبوتة في أن يراني أذهب الى المحطة كيما يبقى بمفرده مع أمه (« كان على الحصان ان يذهب ») تتحول عندئذ الى قلق من رؤية الاحصنة تتهيأ للرحيل؛ وفي الواقع ما كان شيء يثيرفيه مثل هذه الحالة من الحصر كأن تتقلقل، من فناء محطة الجمارك المركزية المواجهة لمنزلنا، عربة استعداداً للرحيل وان تشرع الاحصنة بالتحرك .

« كان لا بد ، كيما ترسي هذه المرحلة الجديدة (مشاعر العداء تجاه أبيه) جذورها ، من أن يعلم هانز أنني لست غاضباً عليه لحبه المغرم بأمه .

« في العصر خرجت من جديد معه إلى امام الباب الخارجي . وقدم الي امام البيت وبقي هناك حتى عندما مرت عربات . وما انتابه الخوف فجرى الى ردهة المدخل إلا لدى مرور عربات قليلة معينة . وقدم لي أيضاً هذا التفسير : « ليست جميع الاحصنة البيض تعض » ، وهذا يعدل القول بأن بعض الاحصنة تم تعرُّفها ، بفضل التحليل ، على أنها « بابا » فما عادت تعض ، ولكن ما تزال هناك أحصنة اخرى تعض .

« ان خريطة الاماكن أمام بابنا الخارجي هي كما يلي : ففي قبالتنا مستودع الجمارك للسلع الغذائية ، وله رصيف للتحميل تمر أمامه ، طوال النهار ، عربات لتحمل صناديق وطروداً وما شابه . ومن جهة الشارع كان حاجز من الشبك يسد هذا الفناء . وفي مواجهة منزلنا تقع بوابة الدخول الى الفناء (انظر الشكل ٢) . وكنت لاحظت منذ بضعة أيام ان هانز يرتعب بصفة خاصة حينما تدخل العربات الى الفناء أو تخرج منه ، مما يضطرها الى الانعطاف . فسألته عندئذ لماذا يخاف الى هذا الحد فأجاب : « **أخاف من ان تقع الاحصنة حين تدور العربة** »

(أ) . وهو يخاف أيضاً حينما تشرع بالتحرك على نحو مباغت العربات الواقفة أمام رصيف التحميل استعداداً للرحيل (ب) . وفضلاً عن ذلك ، انه يخاف (جـ) من الاحصنة الكبيرة التي تستعمل كدواب اكثر مما يخاف من الاحصنة الصغيرة ، ومن أحصنة المزارع الغليظة اكثر من الاحصنة ذات الاشكال الرشيقة (وعلى سبيل المثال أحصنة عربات الأجرة) . كما أنه يخاف عندما تمر عربة مسرعة (د) أكثر مما يخاف حين تتقدم الاحصنة على مهل . وهذه الفروق الدقيقة ما ظهرت بجلاء ، بطبيعة الحال ، إلا في الايام القليلة الماضية » .



الشكل رقم ٢

إني لأجدني ميالاً الى القول ان ليس المريض وحده ، بل كذلك رهابه اكتسب ، من جراء التحليل ، مزيداً من الشجاعة واجترأ على الابانة عن نفسه .

« في الخامس من نيسان ، حضر هانز من جديد الى غرفة نومنا ، فرددناه الى سريره . قلت له : « ما دمت تأتي صباحاً الى غرفتنا ، فإن خوفك من الاحصنة لن يتحسن » . إلا أنه أجابني بتحدٍ : « سآتي على كل حال ، حتى ولو كنت خائفاً » . وهكذا ، فإنه لا يريد أن يرضخ للنهي عن الزيارات التي يقوم بها إلى أمه .

« بعد تناول طعام الفطور تهيأنا للنزول . فاغتبط هانز لذلك أيما اغتباط ورسم خطة يعبر بموجبها الشارع، بدل ان يلبث كالعادة عند

الباب الخارجي ، ويدلف الى الفناء ، حيث كثيراً ما كان رأى الاولاد يلعبون . فقلت له إنني سأكون مسروراً اذا ما عبر الى الفناء ، وانتهزت هذه السانحة لأسأله لماذا يخاف إلى ذلك الحد حينما تشرع العربات المحمَّلة بالتحرك عند رصيف التحميل (ب) .

هانز : إنني أخاف اذا كنت فوق العربة من ان تنطلق العربة بسرعة ، فأبقى فوقها ، وأمضي مع العربة ، مع أنني أريد ان أنزل على العلوة (رصيف التحميل) .

انا : وعندما تقف العربة ساكنة ؟ ألا تكون خائفاً عندئذ ؟ ولماذا لا ؟

هانز : عندما تكون العربة ساكنة ، أستطيع بسرعة أن أصعد الى العربة وانزل منها الى العلوة .

« (لقد خطط هانز اذن للقفز الى رصيف التحميل من فوق عربة ، وهو يخشى ان تمضي به العربة بينما هو فوقها) » .



الشكل ٣

انا : لعلك تخشى ألا تتمكن من الرجوع الى البيت ثانية ان مضت بك العربة ؟

هانز : اوه كلا ، بوسعي دوماً ان أرجع لأجد ماما ، إما بالعربة نفسها أو في عربة أجرة . أستطيع أيضاً أن أخبره برقم المنزل .

انا : مم خوفك اذن ؟

هانز : لا أعرف . غير ان الاستاذ سيعرف . أتعتقد أنه سيعرف ؟

انا : لماذا تريد اذن ان تذهب الى العلوة ؟

هانز : لأنني لم اذهب اليها قط ، وأريد جداً ان اذهب اليها ، وهل تعرف لماذا أريد ان أذهب إلى هناك؟ لأنني أود تفريغ الطرود وتحميلها، وأريد ان أتسلق هناك فوق الطرود . انا أحب كثيراً التسلق فوق الطرود ! أتعرف من علمني التسلق ؟ تسلق أولاد فوق الطرود وقد رأيتهم ، وانا أريد ان افعل مثلهم .

« لم تتحقق رغبته ، إذ عندما جازف هانز من جديد بالخروج الى أمام الباب الخارجي ، ايقظت فيه الخطوات القليلة التي خطاها في الشارع وفي الفناء مقاومات عاتية ، نظراً الى ان العربات كانت تدخل الى الفناء وتخرج منه بلا انقطاع » .

ان الاستاذ لا يعرف سوى شيء واحد ، وهو ان تلك اللعبة التي كان هانز أزمع ان يلعبها مع العربات المحملة لا بد ان تُربط بعلاقة رمزية ، بديلية ، مع رغبة اخرى من رغباته لم يكن قد أفصح عنها بعد . ولكن اذا لم يكن في الأمر غلو في الجرأة ، فإن هذه الرغبة قابلة ، حتى في هذا الطور ، لأن يعاد بناؤها .

« بعد الظهر خرجنا من جديد الى امام الباب الخارجي ، وفيما نحن عائدان سألت هانز : « من أي الاحصنة تخاف في الحقيقة أشد الخوف ؟ » .

هانز : منها كلها .

انا : هذا غير صحيح !

هانز : الأحصنة التي تخيفني أكثر من غيرها هي تلك التي لها شيء على فمها .

انا : ماذا تقصد بذلك ؟ أقطعة الحديد التي في أفواهها ؟

هانز : كلا ، إن لها شيئاً أسود حول فمها (وغطى فمه بيده) .

انا : ماذا ؟ شارب ، من الجائز ؟

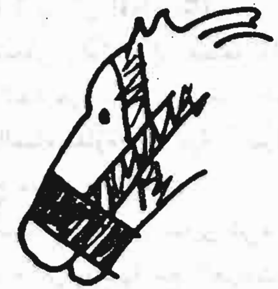
هانز (ضاحكاً) : أوه لا !

انا : ألها كلها هذا ؟

هانز : كلا ، بعضها فقط .

انا : ما هذا الذي على فمها ؟

هانز : شيء أسود (أعتقد أنه في الواقع تلك القطعة السميكة من الجلد التي توضع حول أخطام أحصنة الجر) (الشكل ٤) .



الشكل ٤

هانز : وعربات نقل الاثاث ، إني اخاف منها أيضاً أشد الخوف .

انا : لماذا ؟

هانز : حين تجر أحصنة نقل الاثاث عربة ثقيلة ، اتصور أنها ستقع .

انا : اذن فأنت لا تخاف من العربات الصغيرة ؟

هانز : كلا ، لا اخاف من عربة صغيرة ولا من عربة بريد . ولكني اخاف أشد الخوف أيضاً حينما تأتي عربة اومنيباس .

انا : لماذا ؟ لأنها كبيرة جداً ؟

هانز : كلا ، لأن حصان عربة اومنيباس وقع مرة .

انا : متى كان ذلك ؟

هانز : حينما خرجت مرة مع ماما على الرغم من **الحماقة** ، وذلك عندما اشتريت الصدرية .

« (اكدت أمه ذلك لاحقاً) .

انا : بماذا فكرت حين وقع الحصان ؟

هانز : ان الأمر سيكون هكذا على الدوام . ان جميع أحصنة الاومنيباس ستقع .

انا : في كل عربات الأومنيباس ؟

هانز : بلى ! وكذلك عربات نقل الاثاث . ولكن ليس كثيراً في عربات نقل الاثاث .

انا : اكانت عندك **الحماقة** يومئذ ؟

هانز : كلا ، ولكني حينئذ أصبت بها . حين وقع حصان الاومنيباس ، خفت خوفاً شديداً حقاً ! وفي تلك اللحظة اصبت بها .

انا : كانت **الحماقة** اعتقادك بأن حصاناً سيعضك ، وها أنت تقول الآن إنك تخاف من أن حصاناً سيقع .

هانز : يقع ويعض[٢١] .

انا : لماذا سبب لك ذلك كل هذا الخوف ؟

هانز : لأن الحصان فعل هكذا بأرجله (تمدد أرضاً وأراني كيف كان الحصان يرفس) . لقد خفت ، **لأنه احدث ضجيجاً شديداً باقدامه** .

انا : اين ذهبت في ذلك اليوم مع ماما ؟

هانز : اولاً إلى سكاتنغ رينك ، ثم إلى المقهى ، ثم لشراء الصدرية ، ثم إلى بائع الحلويات ، ثم إلى البيت عند المساء . وقد عدنا عن طريق شتادبارك.

« (كل ذلك اكدته فيما بعد زوجتي ، كما اكدت ان الحصر تفجر عقب ذلك حالاً) .

انا : هل مات الحصان عندما وقع ؟

(٢١) ان هانز على حق ، مهما بدت هذه المقاربة بعيدة الاحتمال . فسلسلة افكاره كانت بالفعل ، وكما سنرى ، كما يلي : ان الحصان (الأب) سيعض هانز بسبب رغبة الطفل في ان يقع الحصان (الأب) .

هانز : أجل .

انا : كيف عرفت ؟

هانز : لأنني رأيته ـ (وضحك) . كلا ، لم يمت .

انا : لعلك اعتقدت انه مات ؟

هانز : كلا ، بالتأكيد لا . قلت ذلك فقط للضحك .

« غير ان تعابير وجهه كانت جادة حين قال ذلك .

« نظراً الى انه كان متعباً ، فقد تركته يذهب ويجري . وقال لي بعد ذلك ايضاً أنه كان يخاف في البداية من احصنة الاومنيباسات ، ثم من سائر الاحصنة ، واخيراً من أحصنة عربات نقل الاثاث .

« وفي طريق العودة من لاينز كانت بضعة أسئلة اخرى :

انا : حين وقع حصان الاومنيباس ، ما كان لونه ؟ ابيض ، أو أصهب ، او بنياً ، او رمادياً ؟

هانز : أسود ، الحصانان كلاهما كانا أسودين .

انا : هل كان كبيراً ام صغيراً ؟

هانز : كبيراً .

انا : ضخماً ام هزيلاً ؟

هانز : ضخماً ، كبيراً جداً وضخماً .

انا : حين وقع الحصان ، هل فكرت ببابا ؟

هانز : جائز . نعم . هذا ممكن » .

من الممكن ان تكون استقصاءات والد هانز قد جانبها التوفيق في العديد من النقاط ؛ لكن لا ضرر اطلاقاً من التعرف عن قرب إلى رهاب من هذا النوع ، وهو رهاب لا نجد في انفسنا ميلاً إلى تسميته إلا بحسب مواضيعه الجديدة . وعلى هذا النحو يتأتى لنا أن ندرك مدى اتساع حقل انتشاره في الواقع. فهو فموضوعه أحصنة وعربات، موضوعه احصنة تقع وتعض ، أحصنة من نوع خاص، وعربات ثقيلة الحمولة . وبوسعنا ان نكشف من الآن عن ان جميع هذه الخصائص

ترجع إلى ان الحصر لم يكن له في الأصل من صلة بالأحصنة ، ولكنه انزاح ثانوياً باتجاه الأحصنة وتثبت عندئذ على عناصر عقدة الاحصنة ، وهي العناصر التي تكشفت عن أنها موائمة لبعض التحويلات. وعلينا ان نكيل ثناء خاصاً لنتيجة أساسية توصل اليها استقصاء أبي هانز . فقد بتنا نعلم الآن ما المناسبة المباشرة التي ارتبط بها تفجر الرهاب. كان ذلك حين رأى الصبي الصغير حصاناً كبيراً ثقيلاً يقع ، ويبدو أن احد التأويلات الممكنة لهذا الانطباع القوي كان ذاك الذي أشار اليه الاب : فقد ساورت هانز الرغبة عندئذ في ان يقع ابوه بالطريقة نفسها ـ ويموت . وأرجح الظن ان تعابير وجه هانز الجادة وهو يروي القصة كان مردها إلى هذا المعنى اللاشعوري . لكن أليس من المحتمل ان معنى آخر يختفي وراء هذا كله ؟ وما دلالة ذلك الضجيج الشديد بالأرجل ؟

* * *

« كان هانز منذ بعض الوقت يلعب لعبة الحصان في الغرفة ، فكان يجري ويقع ، ويرفس بقدميه في كل اتجاه ، ويصهل . وذات يوم علق برقبته كيساً صغيراً كما لو انه مخلاة . وفي غير مرة ركض نحوي وعضني » .

بهذه الكيفية يكون قد أفصح عن تقبله للتأويلات الأخيرة بصورة أشد جزماً مما كان يمكن له ان يفعل بوساطة الكلمات ، ولكن بعد ان قلب الادوار بطبيعة الحال ، إذ كانت اللعبة تخدم استيهاماً رغبياً . هكذا صار هو الحصان ، وهو الذي يعض أباه ، وعلى هذا النحو تماهى مع هذا الأخير .

« لاحظت في اليومين الأخيرين ان هانز يتحداني على نحو ظاهر جداً للعيان ، لا بقحة ، وإنما بأسلوب مرح . ترى هل السبب في ذلك أنه ما عاد يخافني ، انا الحصان ؟

« ٦ نيسان . خرجت مع هانز بعد الظهر إلى امام البيت. وكلما مر

حصان سألته ان كان يرى «الأسود على الفم»، فكان في كل مرة يجيب بالنفي . سألته ماذا يشبه حقاً ذلك الشيء الأسود ، فقال انه حديد أسود . وعلى هذا فإن افتراضي البدئي بأنه كان يعني بذلك القطع الجلدية السميكة التي هي جزء من عُدَّة أحصنة الجر لم تتأيد صحته . سألته ان كان « الأسود » يذكره بشارب ؛ فقال : فقط من حيث اللون . وهكذا فأنا لا أعرف ما هو ذلك الشيء في الواقع .

« الخوف تناقص ؛ تجرأ هذه المرة على الابتعاد حتى البيت المجاور ، لكنه سرعان ما دار على عقبيه حين سمع من بعيد صوت عدو حصان . وعندما دنت عربة من بيتنا وتوقفت امام بابنا ، استبد به الهلع وعاد ركضاً إلى البيت ، إذ راح الحصان يضرب الأرض بقدمه . سألته لماذا خاف ، وعما إذا كان ارتعب لأن الحصان فعل هكذا (ضربت الأرض بقدمي) . فقال عندئذ : « لا تفعل مثل هذا الضجيج بقدميك ! » . وهو قول ينبغي ان يقارن بما كان تفوه بـه بخصوص حصان الاومنيباس الذي وقع .

« أحدث مرور عربة لنقل الاثاث خوفاً شديداً لديه . وجرى للحال الى داخل البيت . سألته بلهجة لا أبالية : « ان عربة لنقل الاثاث كهذه ألا تبدو شبيهة بعربة الاومنيباس ؟ » . فلم ينبس ببنت شفة . كررت سؤالي . فقال عندئذ : « بالتأكيد ، ولولا ذلك لما خفت الى هذا الحد من عربة لنقل الاثاث » .

« ٧ نيسان . اليوم عاودت سؤاله عما يشبه ذلك « الاسود على فم » الاحصنة . فقال هانز : « يشبه الكمامة » . وأغرب ما في الأمر أنه لم يمر منذ ثلاثة ايام أي حصان كان يمكن لهانز أن يلحظ لديه هذه « الكمامة » . وانا نفسي لم أر ، في اثناء نزهاتي ، حصاناً واحداً مكمماً على ذلك النحو ، على الرغم من أن هانز يؤكد وجود هذا النوع من الاحصنة . وما أفترضه هنا هو ان نوعاً معيناً من الألجمة ـ وربما القطعة الجلدية السميكة حول أفواه الاحصنة ـ ذكره فعلاً بشارب ، وأن

ذلك الخوف تلاشى **بدوره** بعد ما المحت إلى ذلك .

« التحسن في حالة هانز مستمر . وقطر دائرة نشاطه ـ على اعتبار الباب الخارجي مركزها ـ في اتساع مطرد . بل لقد أنجز مفخرة ـ ما كانت ممكنة التحقيق بالنسبة اليه حتى ذلك اليوم ـ حينما عبر ركضاً إلى ناصية الشارع المقابلة . وكل مـا تبقى من خوف يـرتبط بمشهد الاومنيباس ، وهو ما لم تتوضح لي دلالته بعد بجلاء .

« ٩ نيسان . دخل هانز هذا الصباح غرفتي فيما كنت أغتسل ونصفي الأعلى عار .

هانز : بابا ، كم أنت جميل ، وشديد البياض !

انا : أليس كذلك ؟ كحصان ابيض .

هانز : الشيء الأسود الوحيد شاربك (وأردف يقول) : او ربما الكمامة السوداء ؟

« رويت له عندئذ انني ذهبت مساء البارحة إلى عند الاستاذ وقلت : « بوده ان يعرف شيئاً » . فقال هانز : « انا بتوق إلى معرفة ذلك ! » .

« قلت له إنني أعرف ما المناسبة التي يحدث فيها ضجيجاً بقدميه . فقاطعني بقوله : « أليس ذلك عندما اكون غاضباً أو عندما يكون علي ان أعمل **لومف**[22] ، في حين انني أريد بالأحرى أن العب؟ » (كان من عادته ، بالفعل ، عندما يكون غاضباً ، ان يحدث ضجيجاً بقدميه ، أي ان يدق بهما الأرض ـ أما أن « يعمل لومف » فمعناها أن يقضي الحاجة الكبيرة[23] . فحينما كان هانز صغيراً قال يوماً وهو ينهض عن « القصرية » : « انظر اللومف LUMPF » . وكان يعني

(٢٢) لومف LUMPF : كلمة خاصة بهانز يشير بها الى برازه ، كما سيتضح من النص . «م» .

(٢٣) قضاء الحاجة الكبيرة عند الأطفال : التغوط ، وقضاء الحاجة الصغيرة : التبول . «م» .

الجورب STRUMPF بالنظر إلى الشكل واللون . وظلت هذه التسمية باقية الى اليوم . وفي الأيام الأولى ، وحين كان يتحتم ان يوضع هانز على القصرية ، بينما كان يرفض ان يترك اللعب ، كان يضرب الأرض بقدميه حانقاً ، ويرفس في كل اتجاه ، بل يرمي بنفسه ارضاً) .

انا : وانت ترفس بقدميك في كل اتجاه ايضاً حين يتعين عليك ان تفرفر بينما انت لا تريد ، إذ تفضل لو تواصل اللعب .

هو : أتعرف ، ينبغي ان اذهب لأفرفر .

« وخرج هانز من الغرفة ، توكيداً منه بلا شك لما كنا نتكلم عنه » .

لقد كان والد هانز سألني ، في اثناء زيارته ، عما يمكن ان يكون الحصان قد ابتعث في ذاكرة هانز لما وقع وراح يرفس بقدميه ؟ وقد أشرت آنئذ إلى أن ذلك يمكن ان يكون رد فعله الخاص حينما يمسك بوله . وقد أيد هانز صحة ذلك الآن إذ عاودته الحاجة إلى التبول في أثناء المحادثة ، وأضاف اليها الدلالات الجديدة للضجيج الذي يُحدث بالقدمين .

« خرجنا عندئذ إلى امام الباب الخارجي . فلما اقتربت عربة فحم ، قال هانز : « أتعرف ، انني اخاف أشد الخوف ايضاً من عربات الفحم » .

انا : ربما لأنها كبيرة في مثل حجم الاومنيباس ايضاً .

هانز : نعم ، ولأنها محملة جداً ، ولأن الاحصنة يجب ان تجر مثل هذا الحمل الثقيل، ومن المحتمل جداً أن تقع. لكن عندما تكون العربة فارغة، لا ينتابني خوف.

« وبالفعل ، وكما لاحظنا من قبل ، فإن العربات الضخمة المحملة هي وحدها التي تضعه في حالة من الحصر » .

ان الموقف يبقى رغم ذلك غامضاً . والتحليل لا يحرز تقدماً يذكر ؛ وإني لأخشى ان يصير عرضه مملاً للقارىء . غير ان كل تحليل يمر بمثل

هذه الفترات من الظلمة . ثم إن هانز يوشك ان يدلف إلى منطقة ما كنا لنتوقع أن نراه يتجه صوبها .

* * *

« قفلت راجعاً إلى البيت وتحادثت مع زوجتي التي كانت اشترت أشياء شتى ، وراحت ترينا اياها . وكان من بينها كيلوت نسائي أصفر . فصاح هانز تكراراً : « كخ ! » ، وارتمى أرضاً وبصق . وقالت زوجتي إنه سبق له أن فعل ذلك عدة مرات عند رؤية الكيلوت .

« سألته : « لماذا تقول كخ ؟ » .

هانز : بسبب الكيلوت .

انا : لماذا ؟ بسبب لونه ؟ لأنه أصفر ويذكرك بالفرفرة أو اللومف ؟

هانز : اللومف ليس أصفر ، بل ابيض أو اسود .

« ثم أردف مباشرة : « قل لي ، هل من السهل ان يعمل الانسان لومف حين يأكل جبناً ؟ » (كنت قلت له يوماً ذلك ، حين سألني لماذا آكل جبناً) .

انا : نعم .

هانز : ألهذا السبب تذهب دوماً منذ الصباح لتعمل لومف ؟ إني أحب كثيراً ان آكل جبناً مع الخبز والزبدة .

« كان قد سألني بالأمس ، فيما هو ينطنط من حولي في الشارع : « قل لي ، حينما ينطنط الواحد هكذا ، ألا يعمل لومف بسهولة ؟ » . كان التبرز صعباً عليه دوماً ، وكثيراً ما كنا نضطر إلى اعطائه مليِّنات وحقناً شرجية . وقد بلغ مرة إمساكه المعتاد درجة من القوة لم تجد معها زوجتي بداً من طلب نصيحة الدكتور ل ... فأعرب هذا عن اعتقاده بأن هانز يعاني من فرط التغذية ـ وكان هذا صحيحاً ـ وأوصى بنظام غذائي أخف ، وهذا ما وضع نهاية سريعة للحالة المشار اليها . غير ان الإمساك عاد إلى الظهور في الآونة الأخيرة على نحو اكثر تواتراً .

« بعد طعام الغداء قلت : « سنكتب من جديد للاستاذ » . فأملى هانز علي : « عند رؤيتي الكيلوت الأصفر قلت : « كخ ! » » ، وبصقت ، وارتميت ارضاً ، وأغمضت عينيّ ، ولم انظر » .

انا : لماذا ؟

هانز : لأنني رأيت الكيلوت الاصفر ، ومع الكيلوت الأسود(٢٤) فعلت الشيء نفسه تقريباً . الكيلوت الأسود هو ايضاً كيلوت كهذا ، لكنه فقط أسود ... (وقاطع نفسه قائلاً :) أتعرف ، إنني مسرور ؛ حين اتمكن من الكتابة إلى الأستاذ اكون دوماً مسروراً .

أنا : لماذا قلت : « كخ ! » ؟ هل كنت مقروفاً من شيء ما ؟

هانز :نعم ،لأنني رأيت ذلك . تصورت أنه سيتعين علي ان اعمل لومف .

انا : لماذا ؟

هانز : لا اعرف .

انا : متى رأيت الكيلوت الأسود ؟

هانز : ذات يوم ، كانت آنا (خادمتنا) في البيت منذ وقت طويل ، لدى ماما ، وكانت قد جاءت بالكيلوت الى البيت بعد أن اشترته (اكدت زوجتي صحة ذلك) .

انا : هل أثار ذلك ايضاً قرفك ؟

هانز : نعم .

انا : هل رأيت ماما ترتدي كيلوتاً كهذا ؟

هانز : كلا .

انا : حينما ترتدي ملابسها ؟

هانز : حينما اشترت الكيلوت الاصفر ، كنت قد رأيته مرة قبل ذلك (في هذا تناقض ! إنما عندما اشترت أمه ذلك الكيلوت رآه للمرة

(٢٤) اقتنت زوجتي منذ بعض الوقت كيلوتاً أسود لتقوم بنزهاتها على الدراجة ...

الأولى) . إنها ترتدي اليوم ايضاً الأسود (هذا صحيح) ، لأنني رأيتها هذا الصباح حينما خلعته .

انا : ماذا ؟ أخلعت هذا الصباح الكيلوت الأسود ؟

هانز : لما خرجت هذا الصباح خلعت الكيلوت الأسود ، ولما رجعت لبسته من جديد .

« سألت زوجتي عن الأمر إذ بدا لي غير معقول . فقالت ان ذلك غير صحيح على الاطلاق ؛ فهي لم تبدل كيلوتها بالطبع عندما خرجت .

« على الأثر سألت هانز : « قلت إن ماما ارتدت كيلوتاً أسود ، وانها لما خرجت خلعته ، ولما رجعت لبسته من جديد . لكن ماما تقول ان هذا غير صحيح » .

هانز : أعتقد انني ربما نسيت انها لم تخلعه. (وبمزاج متعكر دعني وشأني » .

لدي بضعة تعليقات أريد الإدلاء بها بخصوص قصة الكيلوتات هذه: فمن الواضح ان هانز اخذ بجانب المراءاة حين زعم انه مسرور جداً للفرصة التي أتيحت له ليتكلم عن المسألة . لكنه في نهاية المطاف ألقى القناع وسلك سبيل قلة التهذيب مع أبيه . فالأمر يتعلق بأشياء كانت قد وفرت له فيما سبق **قدراً كبيراً من اللذة** ، ولكنه بات الآن ، بعد ان استقر الكبت ، يخجل منها أشد الخجل ويجهر بقرفه . وهو يلجأ إلى الكذب المكشوف ليخفي الظروف التي رأى فيها أمه تغير كيلوتها . والواقع ان خلعها كيلوتها ولبسه أمر ينتمي إلى سياق « اللومف » . والأب على علم تام بحقيقة الأمر وبما يحاول هانز إخفاءه.

« سألت زوجتي ان كان هانز يرافقها كثيراً إلى المرحاض . فأجابت : « نعم ، كثيراً ، انه لا يفتأ « يضايقني » إلى ان « أسمح له ؛ جميع الاطفال يفعلون مثله » .

ان هذه الرغبة ـ التي باتت الآن مكبوتة لدى هانز ـ في ان يرى أمه تعمل «لومف» ـ جديرة بأن نوليها كامل اهتمامنا لاحقاً .

« خرجنا إلى امام البيت . كان مرحاً ، وإذ راح يطفر كالحصان ، سألته : « قل لي ، من هو حصان الاومنيباس ؟ انا أو أنت او ماما ؟ » .

هانز (بلا تردد) : انا ، انني حصان صغير .

« أما حين كان يرى ، في أسوأ أويقات حصره ، أحصنة تطفر ، فقد كان يتملكه الرعب ويسألني لماذا تفعل ذلك ، فأقول له لأبعث الطمأنينة في نفسه : « انها، كما ترى ، أحصنة صغيرة ، وهي تثب كالصبيان الصغار . وانت ايضاً تثب ، فأنت صبي صغير » . ومنذئذ ، صار اذا ما رأى أحصنة تثب يقول : « هذا صحيح ، إنها أحصنة صغيرة ! » .

« وفيما نحن نصعد الدرج ، سألته دونما سابق تفكير تقريباً : « هل لعبت في غموندن لعبة الحصان مع الأولاد ؟» .

هو : نعم ! (متفكراً) أعتقد أنني هناك أصبت بالحماقة .

انا : من كان الحصان ؟

هو : انا ، وبرتا كانت الحوذي .

انا : لعلك وقعت عندما كنت حصاناً ؟

هانز : كلا ! حين كانت برتا تقول : حا ! كنت أجري سريعاً ، بل كنت أجري بأقصى سرعتي[٢٥] .

انا : أما لعبت قط لعبة الاومنيباس ؟

هانز : كلا ، بل لعبة العربات العادية ولعبة الحصان بلا عربة . عندما يكون للحصان عربة ، فإنه يستطيع ان يمضي ايضاً بلا عربة ، والعربة يمكن ان تبقى في البيت .

انا : هل لعبت لعبة الحصان كثيراً ؟

هانز : كثيراً جداً . كان فريتز (أحد اطفال المالك ، كما نعلم) مرة هو الحصان ، وفرانز هو الحوذي ، وقد جرى فريتز بأقصى سرعته ،

(٢٥) كان لدى هانز طقم فرس مع اجراس صغيرة .

وفجأة ارتطمت قدمه بحجر ونزفت .

انا : هل وقع ؟

هانز : كلا ، وضع قدمه في الماء ثم لفها بقطعة قماش[٢٦] .

انا : هل كثيراً ما كنت الحصان ؟

هانز : اوه نعم !

انا : وهناك أصبت بالحماقة ؟

هانز : لأنهم كانوا يقولون طول الوقت : « بسبب الحصان » ، « بسبب الحصان » (شدد على **بسبب**) . وعندئذ ، وربما لأنهم تكلموا هكذا : بسبب الحصان ، ربما أصبت بالحماقة »[٢٧] .

تابع والد هانز لبعض الوقت استقصاءه في دروب اخرى بلا جدوى :

انا : هل قالوا لك شيئاً بخصوص الاحصنة ؟

هانز : نعم !

انا : ماذا ؟

هانز : نسيت .

انا : لعلهم تكلموا عن فرفورتها ؟

هانز : اوه كلا !

انا : هل كنت تخاف من الاحصنة آنذاك ؟

(٢٦) انظر لاحقاً . إن والد هانز محق تماماً إذ افترض أن فريتز وقع حينذاك .

(٢٧) ينبغي أن اوضح أن هانز لا يقصد أنه اصيب آنذاك بالحماقة ، بل ان ذلك كله له صلة بالحماقة . ولا بد أن يكون كذلك هو واقع الحال ، لأن النظرية تقضي بأن ما هو اليوم موضوع لرهاب كان من قبل موضوعاً للذة جارفة ، وسأكمل هنا ما عجز الطفل عن التعبير عنه ، وهو أن كلمة **بسبب** WEGEN هي التي فتحت الطريق لتوسيع نطاق الرهاب بحيث يمتد من الأحصنة الى **العربات** WAGEN . ولا يجوز أن يغرب عنا أبداً أن الطفل يعامل الكلمات معاملة أكثر عيانية بكثير مما يعاملها به الراشد ، وهذا ما يجعل للجناس الصوتي أهمية قصوى عنده .

هانز : اوه كلا ! لم اكن اخاف على الاطلاق .

انا : ربما قالت لك برتا ان الحصان ...

هانز (مقاطعاً) : يفرفر؟ كلا!

« في العاشر من نيسان استأنفت محادثة الامس ، وسعيت الى معرفة ما يمكن أن تعنيه عبارة « بسبب الحصان » . ما استطاع هانز ان يتذكر ، وكان كل ما حضر إلى ذاكرته ان عدة أولاد كانوا مجتمعين في صباح أحد الأيام عند الباب الأمامي وكانوا يقولون : « بسبب الحصان ، بسبب الحصان ! » . وكان هو في عدادهم . ولما ألحفت عليه بالأسئلة ، صرح أنهم لم يقولوا قط : « بسبب الحصان » . فذاكرته قد خانته .

انا : ولكن لا شك انكم ذهبتم جميعاً إلى الاصطبل ، ولا بد انكم تكلمتم هناك عن الاحصنة . ـ لم نتكلم عنها . ـ عمَ تكلمتم ؟ ـ عن لا شيء . ـ كنتم كثرة من الاولاد وما تكلمتم عن شيء ؟ ـ تكلمنا عن شيء ، ولكن ليس عن الأحصنة . ـ عن اي شيء اذن ؟ ـ ما عدت اذكر .

« عدلت عن الأمر بالنظر إلى أن المقاومات كانت عاتية[٢٨] ، وسألت : « أكنت تحب ان تلعب مع برتا ؟ » .

هو : أجل ، كثيراً . ولكن ليس مع أولغا. أتعرف ما فعلته اولغا ؟ أعطتني غريتا، هناك في غموندن، ذات مرة طابة من الورق، فمزقتها أولغا تمزيقاً . برتا ما كانت لتمزق قط طابتي . كنت أحب كثيراً ان العب مع برتا .

انا : هل رأيت ماذا تشبه فرفورة برتا ؟

هانز : كلا ، لكني رأيت فرفورة الحصان ، لأنني كنت على الدوام في الاصطبل ، وهناك رأيت فرفورة الحصان .

---

(٢٨) لم يكن في الواقع ثمة شيء آخر يُكتشف غير التداعي اللفظي الذي غاب عن والد هانز . وذلك مثال جيد على الظروف التي في ظلها تخطىء جهود المحلل مرماها.

انا : ومن ثم شاقك ان تعرف ماذا تشبه فرفورة برتا او ماما ؟

هو : نعم !

« ذكرته بأنه اشتكى لي مرة من ان البنات الصغيرات كن يرغبن دائماً في ان ينظرن اليه وهو يفرفر .

هو : برتا ايضاً كانت تنظر إلي دوماً (بدا لي غير متضايق ، بل راضياً جداً) ، نعم ، كثيراً جداً . هناك في البستان الصغير ، حيث الفجل ، كنت أفرفر ، وكانت تقف امام الباب الأمامي وتنظر إلي .

انا : وحين كانت تفرفر ، هل كنت انت تنظر ؟

هو : كانت تذهب الى الرحاض .

انا : وكان عندك فضول لأن ترى ؟

هو : كنت أذهب إلى المرحاض حين تكون فيه هي .

« (هذا صحيح ! ابلغنا الخدم ذلك يوماً واذكر أننا نهينا هانز عنه) .

أنا : هل كنت تقول لها انك تريد الدخول ؟

هانز : دخلت من تلقاء نفسي ولأن برتا كانت تسمح لي . ليس في هذا شيء معيب .

أنا : وكان يطيب لك أن ترى فرفورتها ؟

هو : أجل ، ولكني لم أرها .

«ذكرته بحلمه في غموندن : لمن هو الرهن الذي في يدي ، الخ ، وسألته : « هل تمنيت في غموندن أن تجعلك برتا تفرفر ؟ » .

هو : لم أقل لها ذلك قط .

أنا : لماذا لم تقل لها ذلك قط ؟

هو : لأنني لم أفكر في ذلك.(مقاطعاً نفسه) اذا كتبت هذا كله للاستاذ ، أفلن تذهب حماقتي سريعاً ؟

أنا : لماذا تمنيت أن تجعلك برتا تفرفر ؟

هو : لا أدري . لأنها كانت تنظر إلي .

انا : هل فكرت بأنه سيتعين عليها عندئذ أن تضع يدها على فرفورتك ؟

هو : أجل . (مغيراً وجهة الحديث) في غموندن كان الأمر مسلياً جداً . في البستان الصغير حيث الفجل ، كان هناك كومة صغيرة من الرمل ، فكنت ألعب هناك برفشي .

« (إنه البستان الذي كان من عادته أن يفرفر فيه) .

انا : في غموندن ، أكنت تضع يدك على فرفورتك حين تكون في السرير ؟

هو : كلا ، ليس بعد . في غموندن كنت انام جيداً فما كنت افكر بذلك على الاطلاق . فعلت ذلك فقط في شارع[29] ... وهنا .

انا : لكن برتا لم تضع يدها قط على فرفورتك ؟

هو : ما فعلت ذلك قط ، كلا ، لأني لم اطلب اليها ذلك قط .

انا : متى اشتهيت أن تفعل ذلك لك ؟

هو : ذات مرة ، في غموندن .

انا : مرة فقط .

هو : نعم ، عدة مرات .

انا : كانت تنظر اليك دوماً وأنت تفرفر ؛ لعلها كان بها فضول الى أن ترى كيف تفرفر .

هو : لعلها كان بها فضول الى أن ترى ماذا تشبه فرفورتي .

انا : ولكن انت ايضاً كان بك فضول ، أفقط الى أن ترى برتا ؟

هو : برتا واولغا ايضاً .

انا : ومن كذلك ؟

هو : لا أحد آخر .

انا : هذا غير صحيح . ماما أيضاً .

---

(٢٩) الشقة التي كانوا يقطنون فيها قبل انتقالهم .

هو : أوه نعم ! ماما .

انا : لكنك الآن ما عاد بك فضول . فأنت تعرف ماذا تشبه فرفورة آنا ؟

هو : لكنها ستكبر ، أليس كذلك[30] ؟

انا : بلى ، بالتأكيد ، لكنها حتى عندما ستكبر فلن تشبه فرفورتك .

هو : أعرف . سوف تكون هكذا (أي كما هي الآن) ، وانما أكبر .

انا : في غموندن ، هل كان بك فضول حين كانت ماما تخلع ثيابها ؟

هو : أجل ، وقد رأيت أيضاً فرفورة آنا ، حين كانت في حمامها .

انا : وكذلك فرفورة ماما ؟

هو : كلا !

انا : هل قرفت عندما رأيت كيلوت ماما ؟

هو : فقط حين رأيت الأسود ، عندما اشترته ، وعندئذ بصقت ، ولكنها عندما تلبس أو تخلع كيلوتها فعندئذ لا أبصق. **انني ابصق، لأن الكيلوت الأسود اسود مثل « اللـومف » ، والأصفر اصفر مثل الفرفرة ، وعندئذ اتصور ان علي ان افرفر** . وعندما ترتدي ماما كيلوتها ، فعندئذ لا أراه ، لأنه يكون مخفياً تحت ثوبها .

انا : وعندما تخلع ملابسها ؟

هو : عندئذ لا ابصق . لكن عندما يكون كيلوتها جديداً ، يكون شكله مثل اللومف . وعندما يكون عتيقاً ، يذهب لونه ويصير وسخاً . عند شرائه يكون نظيفاً تماماً ، وفي البيت يكون قد اتسخ . عندما تشتريه يكون جديداً ، وعندما لا تشتريه يكون عتيقاً .

---

(٣٠) يريد هانز ان يطمئن الى ان فرفورته هو ستكبر .

أنا : العتيق لا يقرفك ؟

هو : عندما يكون عتيقاً ، يكون أكثر سواداً من اللومف ، أليس كذلك ؟ انه يكون أكثر سواداً بعض الشيء(٣١) .

أنا : هل كثيراً ما كنت مع ماما في المرحاض ؟

هو : كثيراً جداً .

أنا : هل أشعرك ذلك بالقرف ؟

هو : نعم ... لا !

أنا : أتحب أن تكون هناك عندما تفرفر ماما أو تعمل لومف ؟

هو : نعم ، كثيراً .

أنا : لماذا تحب ذلك كثيراً ؟

هو : لا أدري .

أنا : ألأنك تعتقد أنك سترى فرفورتها ؟

هو : نعم ، أعتقد ذلك .

أنا : ولكن لماذا ما كنت تريد قط في لاينز أن تذهب الى المرحاض ؟ (كان يرجوني دوماً في لاينز الا آخذه الى المرحاض ؛ فقد خاف مرة من الضجيج الذي يحدثه شد السيفون) .

هو : ربما لأن ذلك يحدث ضجيجاً شديداً عندما يشد .

أنا : عندئذ تخاف ؟

هو : نعم .

أنا : وهنا ، في مرحاضنا ؟

هو : هنا لا . في لاينز كنت أخاف عندما يشد . عندما أكون في الداخل وينزل الماء ، فعندئذ أخاف أيضاً .

(٣١) إن صغيرنا هانز يتخبط هنا ليعبر عن موضوع يعجزه عرضه ، لذا يعسر علينا فهمه . وربما كان يقصد ان الكيلوتات لا تبعث فيه شعوراً بالقرف إلا عندما يراها منفردة ، ولكن ما ان ترتديها امه حتى يمتنع عن الربط بينها وبين اللومف أو الفرفرة ، وعندئذ تثير اهتمامه من نواحٍ أخرى .

« وكيما يريني أنه هنا ، في شقتنا ، لا يخاف ، جعلني أذهب الى المرحاض وأشد السلسلة التي تجعل الماء يتدفق . وعندئذ شرح لي : « انه في البداية ضجيج قوي ، وبعد ذلك ضجيج خفيف (حينما ينزل الماء) . عندما يحدث ذلك ضجيجاً قوياً ، فإني أفضل أن أكون في الداخل ؛ وعندما يحدث ذلك ضجيجاً خفيفاً ، فـإني أفضل أن أخرج » .

أنا : ألأنك تخاف ؟

هو : لأنه عندما يكون الضجيج قوياً ، فإني أحب دائماً أن أراه (يصحح نفسه) أن أسمعه ، وعندئذ أفضل أن أبقى في الداخل كيما أسمعه جيداً .

أنا : بأي شيء يذكرك الضجيج القوي ؟

هو : بأن علي أن أعمل لومف في المرحاض (اذن بالشيء نفسه الذي يذكره به الكيلوت الأسود) .

أنا : لماذا ؟

هو : لا أدري . انني أعرف أن الضجيج القوي هو كما عندما نعمل لومف . ان ضجيجاً كبيراً يذكرني باللومف ، وضجيجاً صغيراً يذكرني بالفرفرة (قارن مع الكيلوتين الأسود والأصفر) .

أنا : قل لي ، ألم يكن حصان الأومنيباس له لون اللومف نفسه ؟ (بحسب رواية هانز كان أسود) .

هو (مندهشاً جداً) : بلى ! » .

ينبغي علي هنا أن أقحم بضع كلمات . إن والد هانز يطرح أسئلة كثيرة أكثر مما ينبغي ، ويدفع باستقصائه في اتجاه أفكار مسبقة التصور ، بدلاً من أن يدع الصبي الصغير يعبر عن أفكاره الخاصة . لهذا يغدو التحليل غامضاً وغير مؤكد . فهانز يمضي في طريقه الخاص ولا يصل الى شيء ان شاء أحدهم تحويله عنه . ومن الواضح أن انتباهه يستأثر به في الوقت الراهن اللومف والفرفرة ، ولا ندري لماذا . وقصة

« الضجيج » لم تتوضح أكثر مما توضحت قصة الكيلوتين الأصفر والأسود . وإني أفترض أن إرهاف أذنه قد التقط جيداً الفارق في الصوت الذي يحدثه كل من الرجل والمرأة عندما يتبولان . وقد أرغم التحليل ، بطريقة مصطنعة وقسرية بعض الشيء ، المعطيات التي قدمها هانز على الإفصاح عن التباين بين الحاجتين الطبيعيتين. وأما القراء الذين لم يمارسوا بأنفسهم التحليل حتى الآن ، فإني لا أستطيع إلا أن أسدي اليهم النصح بألا يتطلعوا الى فهم كل شيء فوراً ، بل ان يولوا ضرباً من الانتباه الحيادي لكل ما يردهم ، ثم ان ينتظروا التتمة .

* * *

« في صبيحة الحادي عشر من نيسان حضر هانز من جديد الى غرفتنا ، وكما في جميع الأيام السابقة صرفناه .

« وروى بعيد ذلك : « اتعرف ، لقد تخيلت شيئاً : كنت في المغطس[٣٢] ، فجاء السنكري وفكه[٣٣] . ثم أمسك بمثقب كبير وغرزه في بطني » .

وقد ترجم الأب هذا الاستيهام على النحو التالي :

« كنت في السرير مع ماما . فجاء بابا وطردني . وبقضيبه الكبير ازاحني عن مكاني قرب ماما » .

ونحن سنعلق في الوقت الراهن حكمنا .

« روى أيضاً فكرة ثانية خطرت له : « كنا في القطار مسافرين الى غموندن . في المحطة رحنا نرتدي ملابسنا ، لكننا لم نتمكن من الانتهاء في الوقت المناسب ، وانطلق القطار من جديد وأخذنا معه » .

« بعيد ذلك بقليل سألته : « هل رأيت قط حصاناً يعمل لومف ؟ » .

---

(٣٢) كانت والدة هانز تحممه بنفسها .

(٣٣) ليحمله بغية إصلاحه .

هانز : نعم ، كثيراً جداً .

أنا : هل يصدر ضجيجاً كبيراً حينما يعمل لومف ؟

هانز : نعم !

أنا : بأي شيء يذكرك الضجيج الكبير ؟

هانز : بلومف يقع في القصرية .

« ان حصان الأومنيباس الذي يسقط ويصدر ضجيجاً بقدميه هو في أرجح الظن لومف يسقط ويحدث بسقوطه ضجيجاً. اذن فالخوف من التبرز والخوف من العربات المحملة بأحمال ثقيلة يكافىء الخوف من بطن ثقيلة الحمل » .

بهذه الطريق الملتفة بدأ والد هانز يستشف وضع الأشياء الحقيقي .

* * *

« في الحادي عشر من نيسان قال هانز في أثناء تناولنا طعام الغذاء : « لو كان عندنا فقط مغطس في غموندن ، فلا يكون علي أن اذهب الى الحمامات العمومية ! » . وبالفعل ، كان يتعين عليه دائماً ، في غموندن ، أن يذهب الى الحمام العام القريب ليأخذ حماماً ساخناً ، وهو ما كان من عادته أن يحتج عليه بدموع ساخنة . كذلك كان في فيينا يصرخ دائماً كلما أجلسناه أو مددناه في المغطس الكبير . فكنا نضطر الى تحميمه وهو راكع أو واقف » .

ان كلام هانز هذا ، بعد أن بدأ يغذي الآن التحليل ببياناته التلقائية ، يقيم الصلة بين تخييليه الأخيرين (تخييل السنكري الذي يفك المغطس ، وتخييل الرحلة المحبطة الى غموندن) . وكان أبوه على حق حين استنتج من التخييل الثاني أن هانز يضمر شيئاً من النفور من غموندن . وهذه مناسبة مؤاتية لنتذكر مرة أخرى أن ما ينبثق من اللاشعور ينبغي أن يفهم ، لا على ضوء ما يسبقه ، بل على ضوء ما يتبعه :

« سألته ان كان خائفاً ومما :

هانز : خائف من السقوط في داخله .

أنا : ولكنك لماذا كنت لا تخاف أبداً حين نحممك في المغطس الصغير ؟

هانز : فيه كنت أجلس ، ولا أستطيع أن أتمدد ، فهو صغير جداً .

أنا : حين كنت تذهب الى غموندن بالقارب ، أما كنت تخاف من السقوط في الماء ؟

هانز : كلا ، لأنني كنت أمسك بثبات ، ومن ثم ما كان من الممكن أن أقع . انني لا أخاف من أن اقع إلا وأنا في المغطس الكبير .

أنا : مع أن ماما هي التي تحممـك. فهل تخشى أن ترميك ماما في الماء ؟

هانز : أخاف أن تفلتني فيسقط رأسي في الماء .

أنا : لكنك تعلم أن ماما تحبك ولن تفلتك أبداً .

هانز : لقد تخيلت ذلك تخيلاً .

أنا : لماذا ؟

هانز : لا أدري البتة .

أنا : ربما لأنك أظهرت شقاوة ، فتصورت أنها ما عادت تحبك ؟

هانز : نعم !

أنا : حينما كنت تتفرج على ماما وهي تحمم آنا ، ربما تكون تمنيت أن ترخي يديها لكي تسقط آنا في الماء ؟

هانز : نعم ! » .

واننا لنعتقد أن والد هانز أصاب تماماً هنا في حدسه .

* * *

« ١٢ نيسان . في أثناء رجوعنا من لاينز بالقطار في عربة من الدرجة الثانية ، قال هانز وهو ينظر الى وسائد الجلد الأسود : « كخ !

هذا يجعلني أبصق ! الكيلوتات السود والأحصنة السود تجعلني أيضاً ابصق ، لأنه يكون عليّ أن أعمل لومف » .

أنا : هل رأيت لدى ماما شيئاً أسود جعلك ترتعب ؟

هانز : بلى !

أنا : ما هو ؟

هانز : لا أعرف . بلوزة سوداء أو جوارب سود .

أنا : ربما رأيت عند فرفورتها شعراً أسود ، عندما كان عندك فضول ونظرت .

هانز (مدافعاً عن نفسه) : لكني لم أرَ فرفورتها .

« لما ظهرت عليه من جديد علائم الخوف إذ أبصر بعربة تخرج من بوابة الفناء المواجه لنا ، سألته : « هذه البوابة الا تشبه مؤخرة ؟ » .

هو : والأحصنة هي اللومف !

« ومنذئذ صار يقول كلما رأى عربة تخرج : « انظر ! هوذا « لومفي » يأتي ! وكان تحوير الكلمة على هذا النحو (لومفي) جديداً تماماً بالنسبة اليه ، وكان أشبه بصيغة تدليل . فزوجة أخي تنادي طفلها دوماً : « فومفي » (WUMPFI) .

« في ١٣ نيسان رأى في الحساء قطعة من كبد فقال : « كخ ! لومف ! » . كذلك كان يأكل بتقزز واضح كفتة اللحم بسبب شكلها ولونها اللذين يذكرانه باللومف .

«في المساء روت زوجتي أن هانز كان خارجاً الى الشرفة وقال: « تخيلت أن آنا كانت في الشرفة وسقطت منها » . وكنت قد قلت له مراراً إنه يتعين عليه ، حين تكون آنا في الشرفة ، أن ينتبه حتى لا تقترب أكثر مما ينبغي من الدرابزين ، وهو درابزين كان قد صممه فنان من المدرسة « الانفصالية » على نحو غير عمـلي على الاطلاق ، فجعل له فتحات كبيرة اضطررت فيما بعد الى إغلاقها بمشبك . وقد شفت رغبة هانز المكبوتة

عن نفسها بوضوح . فقد سألته أمه ان كان يفضل الا تكون آنا قد خلقت ، فأجاب بالايجاب .

« ١٤ نيسان. موضوع آنا يشغل مكانة الصدارة. وكما يمكنك أن تذكر من تقارير سابقة ، كان هانز قد ساوره نفور شديد من الطفلة الوليدة التي سلبته جانباً من حب والديه ـ وهو نفور لم يختف بعد بتمامه، وان عوضت عنه جزئياً تعويضاً زائداً عن الحد محبة مغالى فيها[٣٤] . وكان أفصح من قبل مراراً عن الرغبة التالية : « ينبغي على اللقلق الا ياتي بطفل آخر ، وعلينا ان ندفع له مالاً حتى لا يخرج أطفالاً آخرين من **الصندوق الكبير** الذي منه يؤتى بالأطفال » (قارن مع الخوف من عربات نقل الاثاث . أفلا تشبه عربة نقل الاثاث صندوقاً كبيراً ؟) . وهو يقول إن آنا تصرخ كثيراً ، وإن هذا يضايقه .

« قال يوماً على حين بغتة : « أتذكر حين جاءت آنا ؟ كانت بجانب ماما في السرير ، غاية في اللطف والهدوء » (كان هذا المديح ذا وقع كاذب !) .

« ولكن تحت ، امام البيت ، يمكننا ان نلاحظ تقدماً كبيراً . فحتى عربات الشحن صارت تبتعث لديه خوفاً أقل . وقد هتف يوماً ، بشبه فرح : « هوذا حصان مع شيء أسود على الفم ! » . وقد وسعني أخيراً أن أتبين أنه حصان بكمامة من الجلد . غير أن هانز لم يكن خائفاً على الاطلاق من هذا الحصان .

« ضرب يوماً بلاط الطريق بعصاه وسأل : « قل لي ، هل يوجد رجل تحته ... واحد مدفون ... أم أن ذلك لا يكون إلا في المقبرة فقط ؟ ». هكذا كان مشغولاً لا بلغز الحياة فحسب ، بل كذلك بلغز الموت .

(٣٤) ان موضوع آنا يعقب مباشرة موضوع اللومف . وهذا ما يوحي لنا بتفسير : فآنا هي نفسها لومف ـ والمواليد الجدد لومفات .

« رأيت لدى عودتي الى البيت صندوقاً في الدهليز ، وقال هانز :

« سافرت آنا الى غموندن معنا في صندوق كهذا . في كل مرة ذهبنا الى غموندن ، جاءت معنا في الصندوق . الا تصدقني بعد ؟ هذا صحيح ، يا بابا . صدقني . لقد اخذنا صندوقاً كبيراً ، وكان داخله مليئاً بالأطفال . كانوا جالسين في المغطس » (كان مغطس صغير قد وضع في الصندوق) . « لقد وضعتهم أنا في داخله ، هذا صحيح . أستطيع أن أتذكر ذلك جيداً[٣٥] » .

أنا : ماذا تستطيع أن تتذكر ؟

هانز : أن آنا سافرت في الصندوق ، لأنني لم أنس ذلك . هذه كلمة شرف !

أنا : لكن آنا سافرت معنا في العام الماضي في عربة القطار .

هانز : لكن من قبل سافرت دوماً معنا في الصندوق .

أنا : أليست ماما هي التي عندها الصندوق ؟

هانز : أجل ، كان عند ماما .

أنا : أين ؟

هانز : في بيتنا ، في السقيفة .

أنا : لعلها حملته معها[٣٦] ؟

هانز : كلا ! وعندما سنذهب هذه المرة ، ستسافر آنا من جديد في الصندوق .

(٣٥) بدأ ينسج خيالات. ونحن نتبين أن الصندوق والمغطس هما بالنسبة إليه متكافئان،ممثلان للمكان الذي يوجد فيه الأطفال . انظر توكيداته المتكررة بصدد هذا الموضوع .

(٣٦) الصندوق هو ، بالطبع ، بطن الام . وكان الأب يحاول أن يفهم هانز أنه مدرك لذلك . وكذلك أيضاً شأن السبت (الصندوق) الذي كان يُهجر فيه الكثيرون من الأبطال الأسطوريين ، ابتداء من الملك سرجون الاكادي . (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ انظر رانك : أسطورة ميلاد البطل ، ١٩٠٩ ، الطبعة الثانية ١٩٢٢ .

أنا : كيف خرجتْ اذن من الصندوق ؟

هانز : أخرجوها .

أنا : أخرجتها ماما ؟

هانز : أنا وماما . عندئذ صعدنا الى العربة وكانت آنا على الحصان وقال الحوذي : « حا ! » . كان الحوذي على مقعده . هل كنت أنت هناك أيضاً ؟ ماما تعرف كل ذلك . ماما ما عادت تعرف ، فقد نسيت ذلك ، ولكن لا تخبرها بشيء من ذلك !

« جعلته يكرر كل ما قاله .

هانز : عندئذ خرجت آنا .

أنا : لكن ما كان في استطاعتها بعد أن تمشي .

هانز : حسناً ، نحن الذين أنزلناها .

أنا : لكن كيف استطاعت أن تقعد على الحصان ؟ تذكر أنها ما كانت تستطيع بعد الجلوس في العام الماضي !

هانز : أوه بلى ! كانت تجلس وتصيح : « حا ! » ، وتضرب بالكرباج : « حا ! حا ! » ، الكرباج الذي كان لي ، أنا . لم يكن للحصان ركاب ، لكن آنا كانت تركب فوقه مع ذلك . انني لا أقول ذلك على سبيل المزاح، أنت تعرف يا بابا » .

ماذا يمكن أن يكون السبب الذي حمل هانز على التشبث بمثل هذا العناد بكل هذا الهراء ؟ أوه ! انه ليس هراء ، وانما محاكاة ساخرة وانتقام من قبل هانز من أبيه . وهذا يعدل القول : **إذا كنت تتوقع أن أصدق أن اللقلق جاء بآنا في تشرين الأول ، بعد ما كنت رأيت في الصيف الماضي ، حين كنا في غموندن ، بطن ماما وقد تضخمت ، ففي وسعي عندئذ ان أتوقع أيضاً أن تصدق انت أكاذيبي** . ماذا يمكن أن تكون دلالة توكيده بأن آنا سافرت معهم ، في العام الماضي ، الى غموندن « في الصندوق » ، سوى أن هانز كان على علم بحبل أمه ؟ وان يكن هانز قد توقع أن تتجدد تلك السفرة في الصندوق في جميع السنوات

القادمة ، فهذا شكل مألوف تلبسه الفكرة اللاشعورية حين تبزغ من ثنايا الماضي ؛ أو ربما كان لهذه الواقعة أسبابها الخاصة وتعبر عن خشية هانز من أن يتجدد مثل ذلك الحبل في العطلة الصيفية القادمة . وقد تبينا الآن الظروف الخاصة التي أفسدت عليه رحلته الى غموندن ، على نحو ما كشف عن ذلك تخييله الثاني .

« سألته بعد ذلك بقليل كيف أمكن لآنا ، بعد ولادتها ، أن تأتي الى فراش أمه » .

عندئذ أمكن لهانز أن يندفع ، وكله جذل وحبور ، في السخرية من أبيه .

هانز : جاءت آنا ببساطة . السيدة كراوس (القابلة) وضعتها في الفراش . وفي الحقيقة ، ما كانت تستطيع أن تمشي . لكن اللقلق حملها بمنقاره . مؤكد أنها ما كانت تستطيع أن تمشي. (وتابع دون توقف) صعد اللقلق الدرج الى عند العتبة ، ثم طرق الباب ، وكان الجميع نياماً ، وكان معه المفتاح اللازم ، وفتح الباب ووضع آنا في سريرك **أنت**[٣٧] ، وكانت ماما نائمة ـ كلا ، وضعها اللقلق في سريرها **هي** . كان ذلك في منتصف الليل ، وقد وضعها اللقلق بهدوء تام في السرير ، ولم يحدث صوتاً على الاطلاق بقدميه ، ثم أخذ قبعته وانصرف . لم تكن لديه قبعة .

أنا : من أخذ قبعته ؟ ربما الدكتور ؟

هانز : بعدئذ انصرف اللقلق ، عاد الى بيته ، ثم دق جرس الباب ، وما عاد أحد في البيت الى النوم . لكن لا تخبر بذلك ماما أو تيني (الطاهية) . هذا سر !

أنا : هل تحب آنا ؟

هانز : أوه نعم ! أحبها كثيراً .

(٣٧) هذا من قبيل السخرية ، بطبيعة الحال ، مثل طلبه اللاحق منه بألا يفشي السر لأمه .

أنا : هل كنت تفضل لو أن آنا لم تخلق أم تفضل أن تكون خلقت ؟

هانز : كنت أفضل لو انها لم تخلق .

أنا : لماذا .

هانز : على الأقل ما كانت ستصرخ هكذا ، وأنا لا استطيع أن أتحمل صراخها .

أنا : لكنك أنت نفسك تصرخ .

هانز : لكن آنا تصرخ ايضاً .

أنا : لماذا لا تستطيع أن تتحمل صراخها ؟

هانز : لأنها تصرخ عالياً جداً .

أنا : لكنها لا تصرخ إطلاقاً .

هانز : عندما تضرب على طرطوزتها العارية ، بان بان ، عندئذ تصرخ .

أنا : وهذا يضايقك ؟

هانز : كلا ... لماذا ؟ لأنها تحدث ضجيجاً شديداً بصراخها .

أنا : ما دمت تفضل لو انها لم تخلق ، فهذا معناه أنك لا تحبها على الاطلاق .

هانز (باستحسان) : همْ ! همْ !

أنا : لهذا تخيلت أن ماما لو أفلتتها ، وهي تحممها ، فعندئذ تسقط آنا في الماء ...

هانز (متمماً الجملة) ... وتموت .

أنا : وعندئذ تصبح بمفردك مع ماما . والصبي الصغير الطيب لا يجوز له أن يتمنى شيئاً كهذا .

هانز : **لكنه يستطيع أن يتخيل ذلك !**

أنا : هذا ليس حسناً .

هانز : **اذا تخيل ذلك ، فهذا أمر حسن على كل حال ، حتى يمكن**

ان نكتب به الى الأستاذ(٣٨) .

« قلت لهانز بعيد ذلك بقليل : « أتعرف ، عندما ستكبر آنا قليلاً وتستطيع أن تتكلم ، فستحبها بكل تأكيد أكثر » .

هانز : أوه ! كلا . انني أحبها من الآن . عندما ستكبر آنا ، في الخريف ، فسأذهب معها بمفردي الى شتادبارك وسأفسر لها كل شيء .

« ولما بدأت أقدم له ايضاحات جديدة ، قاطعني كيما يشرح لي ، في أرجح الظن ، انه ليس أمراً سيئاً الى هذا الحد ان يكون قد تمنى موت آنا .

هانز : أتعرف ، لقد كانت خُلقت منذ زمن بعيد ، حتى قبل أن تأتي الى هنا . كانت قد خلقت حتى وهي عند اللقلق .

أنا : كلا ، لعلها ما كانت في نهاية الأمْر عند اللقلق .

هانز : من أتى بها اذن ؟ ان اللقلق هو الذي أتى بها .

أنا : لكن من اين أتى بها ؟

هانز : بكل تأكيد من عنده .

أنا : أين كان يحتفظ بها اذن ؟

هانز : في الصندوق ، **في صندوق اللقلق** .

أنا : ما شكل هذا الصندوق ؟

هانز : انه احمر . مدهون بالاحمر (بالدم ؟) .

أنا : من أخبرك بذلك ؟

هانز : ماما ... تخيلت ذلك بنفسي ... انه في الكتاب .

أنا : في اي كتاب ؟

هانز : في الكتاب المصور (طلبت اليه أن يأتيني بكتابه المصوَّر الأول. كان فيه صورة عش لطيور اللقلق، مع لقالق تقف على مدخنة حمراء . ذلك هو الصندوق . وكان في الصفحة نفسها ـ وهذا موضع

---

(٣٨) مرحى لهانز الصغير ! فليس لي ان أتمنى ، حتى لدى الراشد ، فهماً افضل للتحليل النفسي .

الغرابة ـ صورة لحصان تُركَّب له حدوة[٣٩] . وقد قام هانز بتحويل الاطفال الى الصندوق ، لأنه لم يجدهم في العش) .

انا : ماذا فعل اللقلق بآنا ؟

هانز : عندئذ حمل آنا الى هنا . بمنقاره . انت تعرف ، اللقلق الذي في شونبرون والذي يعض المظلة (استذكار لحادثة بسيطة وقعت في شونبرون) .

انا : هل رأيت كيف جاء اللقلق بآنا ؟

هانز : انت تعرف ، كنت ما ازال نائماً . إن اللقلق لا يستطيع أن يأتي بصبي صغير أو ببنت صغيرة في الصباح[٤٠] .

انا : لماذا ؟

هانز : انه لا يستطيع . اللقلق لا يستطيع ان يفعل ذلك . أتعرف لماذا ؟ كيلا يراه الناس ، وعندئذ نجد عندنا ، على حين فجأة ، بنتاً صغيرة .

انا : لكن كان عندك فضول حينئذ الى أن تعرف كيف فعل اللقلق ذلك .

هانز : اوه نعم !

انا : كيف كان شكلها حين جاءت ؟

هانز (بلهجة مرائية) : بيضاء جداً ولطيفة . وكأنها من ذهب .

انا : لكنك عندما رأيتها للمرة الاولى لم تعجبك .

---

(٣٩) استباقاً لما سوف يأتي ، من المفيد ان نلاحظ أن اللفظة الألمانية BESCHLAGEN (تركب له الحدوة) لا تختلف إلا بحرف واحد عن اللفظة الألمانية GESCHLAGEN (يُضرب) . هامش الترجمة الفرنسية .

(٤٠) ليس لنا أن نتوقف عند التناقض في منطق هانز . ففي المحادثة السابقة كان عدم تصديقه لحكاية اللقلق قد بزغ من لاشعوره ، حينما ثار السخط في نفسه على أبيه الذي كان يسرف في اصطناع الالغاز . أما الآن فقد استرد هدوءه وراح يرد على أسئلته بصورة رسمية ، بعد أن اختلق لنفسه تفسيرات يتغلب بها على الاشكالات التي تنطوي عليها فرضية اللقلق .

هانز : أوه ، كثيراً .

انا : لكنك دهشت إذ وجدتها صغيرة جداً .

هانز : اجل !

انا : كانت صغيرة مثل ماذا ؟

هانز : مثل لقلق صغير .

انا : وكيف ايضاً ؟ ربما مثل لومف ؟

هانز : اوه ، كلا ، ان اللومف اكبر بكثير ... في الحقيقة ، اصغر بقليل من آنا » .

كنت قد تنبأت لوالد هانز بأن رهاب هذا الاخير قابل للارجاع الى افكار ورغبات تتصل بمولد أخته الصغيرة ، لكني أغفلت أن ألفت انتباهه الى ان الوليد ، بحسب النظريات الجنسية عند الاطفال[٤١] ، يكون عبارة عن « لـومف » ، ومن ثم فإن الطريق الذي سلكه هانز كان محتماً أن يمر بالعقدة التبرزية . والغموض المؤقت الذي اعترى العلاج انما مرده الى إهمالي هذا تحديداً . أما وقد توضحت المسألة الآن ، فإن الاب سيحاول ان يستجوب هانز مرة ثانية بصدد هذه النقطة المهمة .

« في اليوم التالي ، جعلته يكرر من جديد القصة التي رواها بالأمس . فقال هانز : « سافرت آنا الى غموندن في الصندوق الكبير ، وماما في عربة القطار ، وآنا في قطار الشحن مع الصندوق ، ثم لما وصلنا الى غموندن قمنا ، أنا وماما ، بإخراج آنا من الصندوق وأجلسناها على الحصان . كان الحوذي فوق مقعده وكان مع آنا الكرباج السابق (العام السابق) ، فضربت الحصان بالكرباج وهي تصيح باستمرار : « حا ! » » ، وكان ذلك مسلياً جداً ، وكان الحوذي أيضاً يضرب بالكرباج . ـ لم يضرب الحوذي بالكرباج على الاطلاق ، لأن الكرباج كان

---

(٤١) انظر مقال فرويد : **حول النظريات الجنسية الطفلية** ، في كتاب الحياة الجنسية الذي صدر، بترجمتنا، عن دار الطليعة، بيروت ١٩٨٢. «م» .

مع آنا . كان الحوذي يمسك بالأعنة . ـ كانت آنا أيضاً تمسك بالأعنة (اننا نستقل على الدوام العربة من المحطة الى البيت ؛ وهانز يحاول هنا التوفيق بين الواقع والخيال) . في غموندن انزلنا آنا عن الحصان ، وصعدت الدرج بمفردها » (في العام الماضي ، حين كنا في غموندن ، كانت آنا في الشهر الثامن من العمر . وقبل ذلك بعام ـ وتخييل هانز يرتبط بغير ما شك بذلك التاريخ ـ كانت أمه ، لدى وصولنا الى غموندن ، حبلى في شهرها الخامس) .

انا : في العام الماضي كانت آنا موجودة .

هانز : في العام الماضي كانت في العربة ، لكن في العام قبل الماضي ، عندما كانت موجودة معنا ...

انا : أكانت موجودة معنا منذ ذلك الحين ؟

هانز : نعم ، كنت انت دائماً موجوداً ، لتركب معي في القارب ، وآنا كانت خادمتنا .

انا : لكن لم يكن ذلك في العام قبل الماضي . فآنا لم تكن قد خلقت بعد .

هانز : **بلى ، كانت قد خلقت** . وحتى عندما كانت لا تزال تسافر في الصندوق كانت تستطيع ان تجري ، وكانت تستطيع ان تقول : **آنا** (انها لا تستطيع ان تقول ذلك إلا منذ اربعة اشهر) .

انا : ولكن كيف ، انها لم تكن قد وجدت بعد معنا على الاطلاق في ذلك الوقت ؟

هانز : اوه بلى ، كانت موجودة ، عند اللقلق .

انا : ما عمر آنا اذن ؟

هانز : سيصير لها عامان في الخريف ؛ كانت آنا موجودة هنا بالتأكيد ، انت تعرف ذلك .

انا : ومتى كانت مع اللقلق في صندوق اللقلق ؟

هانز : من زمن بعيد ، قبل ان تسافر في الصندوق . أجل ، من زمن بعيد جداً .

انا : منذ كم من الزمن صار في مستطاع آنا ان تمشي ؟ عندما كانت في غموندن ما كان في مستطاعها بعد ان تمشي .

هانز : في العام الماضي لا ؛ وعدا ذلك كانت تستطيع .

انا : ولكن آنا لم تذهب الى غموندن إلا مرة واحدة .

هانز : كلا ! بل ذهبت اليها مرتين ؛ نعم ، هو كذلك . أستطيع التذكر جيداً . اسأل ماما ، فتخبرك حالاً .

انا : غير ان هذا غير صحيح .

هانز : بلى ، صحيح . **عندما كانت في غموندن لأول مرة ، كان في مستطاعها ان تمشي وان تركب الحصان، وفيما بعد صار يتحتم حملها** . ـ كلا ، فيما بعد فقط ركبت الحصان ، وفي العام الماضي كان يتحتم حملها .

انا : لكن آنا ما اقتدرت على المشي إلا منذ وقت وجيز جداً . وفي غموندن ما كانت تستطيع ان تمشي .

هانز : بلى ، اكتب ذلك فقط . انني اذكر جيداً . لماذا تضحك ؟

انا : لأنك مهرج ، لأنك تعرف جيداً ان آنا لم تذهب الى غموندن إلا لمرة واحدة .

هانز : كلا ، هذا غير صحيح . في أول مرة ذهبت على الحصان ... وفي ثاني مرة (وبدا عليه التردد واضحاً) .

انا : ربما كان الحصان هو ماما ؟

هانز : كلا ، كان حصاناً حقيقياً ، بعربة ذات عجلتين .

انا : لكننا نستقل على الدوام عربة بحصانين .

هانز : حسناً ، كانت اذن عربة أجرة .

انا : ماذا كانت تأكل آنا ، وهي في الصندوق ؟

هانز : وضعوا في داخله خبزاً وزبداً وسمك رنك وفجلاً (طعام العشاء المعتاد في غموندن) ، وفيما كانت آنا تسافر كانت تدهن خبزها بالزبدة وقد اكلت خمسين مرة .

انا : أما كانت آنا تصرخ ؟

هانز : كلا !

انا : ماذا كانت تفعل اذن ؟

هانز : كانت تجلس بكل هدوء في الداخل .

انا : أما كانت تتحرك ؟

هانز : كلا ، كانت تأكل طوال الوقت وبدون توقف ، ولم تتحرك مرة واحدة . شربت فنجانين كبيرين من القهوة - وفي الصباح كان كل شيء قد أفرغ، وقد تركت الفضلات في الصندوق ،وأوراق الفجلتين وسكيناً لقطع الفجل . التهمت كل شيء كأرنب بري ، وفي دقيقة واحدة كان كل شيء قد انتهى . كان ذلك ظريفاً حقاً . بل لقد سافرنا انا وآنا معاً في الصندوق ، ونمت في الصندوق طوال الليل (كنا بالفعل قد سافرنا الى غموندن ليلاً قبل عامين) ، وكانت ماما تسافر في القطار . وأكلنا بلا توقف أيضاً في العربة ، وكان ذلك رائعاً ! لم تكن على الاطلاق فوق الحصان (لقد ساوره الآن الشك ، لأنه يعرف اننا كنا ركبنا عربة بحصانين) ... بل كانت جالسة في العربة . أجل ، هكذا كان ، لكني انا وآنا كنا بمفردنا في العربة ... وكانت ماما على الحصان ، وكارولين (خادمتنا في تلك السنة) على الحصان الآخر ... أتعرف ، إن ما أقصه هنا ليس صحيحاً على الاطلاق .

انا : أي شيء هو غير الصحيح ؟

هانز : لا شيء من هذا كله صحيح . أتعرف ، ضعونا أنا وآنا في الصندوق[٤٢] ، وسأفرفر في الصندوق . سأفرفر في بنطلوني، فهذا عندي سيان ، وليس فيه ما يخجل. أتعرف ، هذا ليس تهريجاً ، ولكنه مسل جداً مع ذلك !

(٤٢) الصندوق الذي كان في الدهليز والذي حملناه في جملة امتعتنا الى غموندن .

« روى عندئذ قصة الكيفية التي جاء بها اللقلق ، كما بالامس ، لكنه أغفل هذه المرة ان يذكر ان اللقلق أخذ قبعته عند انصـرافه .

انا : اين كان اللقلق يحمل مفتاح الباب ؟

هانز : في جيبه .

انا : وأين يوجد جيب للقلق ؟

هانز : في منقاره .

انا : في منقاره ؟ لم أرَ حتى اليوم لقلقاً وفي منقاره مفتاح .

هانز : كيف كان يمكنه اذن بغير ذلك ان يدخل ؟ كيف يدخل اللقلق من الباب اذن ؟ هذا غير صحيح ، لقد أخطأت فقط ، فاللقلق يقرع الباب ، فيفتح له أحدهم .

انا : وكيف يقرع ؟

هانز : يقرع الجرس .

انا : كيف يفعل ؟

هانز : يستخدم منقاره ليضغط به على الجرس .

انا : وهل أغلق الباب وراءه ؟

هانز : كلا ، أغلقته خادمة ، كانت قد استيقظت ، ففتحت الباب للقلق وأغلقته .

انا : أين يسكن اللقلق ؟

هانز : أين ؟ في الصندوق الذي يحتفظ فيه بالبنات الصغيرات . ربما في شونبرون .

انا : في شونبرون لم أر صندوقاً .

هانز : ذلك لأنه كان بعيداً . أتعرف كيف يفتح اللقلق الصندوق ؟ يستخدم منقاره - للصندوق أيضاً مفتاح - يستخدم منقاره ويفتح نصفه (نصف المنقار) ويفتح هكذا (أراني كيف يفعل اللقلق بقفل المكتب) . هذا أيضاً ممسك .

انا : وبنت صغيرة هكذا أليست ثقيلة على اللقلق ؟

هانز : ان كان بوسعي أن آخذ الحصان وأن أضربه بالكرباج وأن أصيح به بعد ذلك . فقال : نعم .

انا : هل ضربته بالكرباج كثيراً ؟

هانز : **إن ما رويته لك الآن ليس صحيحاً على الاطلاق** .

انا : ما الصحيح فيه ؟

هانز : لا شيء فيه صحيح ، رويت لك ذلك لا لشيء إلا للضحك .

انا : ألم تخرج قط حصاناً من الاصطبل ؟

هانز : اوه كلا !

انا : ولكن كان بودك لو تفعل ذلك ؟

هانز : اوه نعم ! كان بودي ، لقد تخيلت ذلك .

انا : في غموندن ؟

هانز : كلا ، هنا فقط . تخيلت ذلك صباحاً عندما كنت بلا ثياب على الاطلاق ؛ كلا ، في الصباح وأنا في السرير .

انا : لماذا لم تخبرني بذلك قط ؟

هانز : لم افكر بذلك .

انا : أتخيلت ذلك لأنك رأيت من يفعله في الطريق ؟

هانز : نعم !

انا : من بودك في الحقيقة ان تضربه ، ماما أو آنا أو انا ؟

هانز : ماما .

انا : لماذا ؟

هانز : لأنني أحب أن اضربها .

انا : أرأيت قط احداً يضرب أمه ؟

هانز : ما رأيت ذلك قط ، ما رأيت ذلك في حياتي قط .

انا : وهذا مع ذلك ما بودك ان تفعله . بماذا كنت ستضرب ؟

هانز : بمضرب السجاد .

« (كثيراً ما تهدده أمه بضربه بهذا المضرب) » .

« كنت مضطراً يومئذ الى إيقاف الحديث عند هذا الحد » .

« في الطريق أوضح لي هانز ان الاومنيباسات وعربات نقل الاثاث وعربات الفحم هي جميعها عربات **للقلق** » .

أي نساء حبالى . أما النزوة السادية ، التي أفصحت عن نفسها قبيل ذلك مباشرة ، فلا يمكن ان تكون منعدمة الصلة بموضوعنا .

* * *

« ٢١ نيسان. روى هانز هذا الصباح انه تخيل ما يلي : « كان هناك قطار في لاينز وكنت مسافراً مع جدتي من لاينز الى محطة الجمارك المركزية . ما كنت انت نزلت بعد عن المعبر ، عندما كان القطار الثاني قد وصل الى سان ـ فايت[٤٤] . وعندما نزلت ، كان القطار قد توقف ، فصعدنا اليه » .

« كان هانز في لاينز بالأمس . وللوصول الى رصيف الانطلاق ، كان لا بد من عبور معبر . ومن الرصيف كان يمكن للمرء ان يرى السكة على مدى امتدادها الى سان ـ فايت . والأمر كله يلفه قدر من الغموض . وكانت فكرة هانز الاصلية كالتالي في اغلب الظن : لقد استقل هو القطار الاول الذي فاتني ، ومن سان ـ فايت وصل قطار ثانٍ ، فسافرت فيه . لكنه حرَّف جزءاً من هذا التخييل الهروبي ، فقال في نهايته : « لقد سافرنا كلانا ولكن فقط في القطار الثاني » .

« ان هذا التخييل مرتبط بسابقه ، الذي لم نؤوله بعد ، والذي بحسبه استغرقنا زمناً اطول مما ينبغي في ارتداء ملابسنا في محطة غموندن ، مما جعل القطار يمضي بنا قبل ان ننزل منه » .

« عند العصر ، امام البيت ، هرع هانز فجأة الى داخل البيت عندما ظهر حصانان يجران عربة ، وقد تعذر علي أن أرى في هذين الحصانين شيئاً غير عادي » .

---

(٤٤) سان ـ فايت : هي المحطة التالية للاينز بعد مغادرة فيينا . «م» .

« سألته ما به ، فقال : « ان الحصانين مزهوان جداً ، حتى إني لأخاف أن يقعا » (كان الحوذي يشد لجام هذين الحصانين ، فيتقدمان بخطى موزونة متهادية ، مرفوعي الرأس ، وكان مظهرهما ينم حقاً عن زهو) » .

« سألته من هو في الواقع المزهو جداً .

هو : انت ، حين آتي الى فراش ماما .

انا : أتريدني اذن ان أقع أرضاً ؟

هو : أجل . ينبغي عندئذ ان تكون عارياً (يقصد عاري القدمين ، نظير فريتز) وان ترتطم بحجر ، وعندئذ يسيل الدم وأستطيع على الأقل ان ابقى بمفردي مع ماما . وعندما ستصعد الينا ، فسيكون في وسعي أن أهرب بسرعة بعيداً عن ماما ، كيلا تراني .

انا : أتستطيع ان تتذكر من الذي ارتطم بحجر ؟

هو : نعم، فريتز .

انا : وحين وقع فريتز ، بأي شيء فكرت[٤٥] ؟

هو : بأنه كان ينبغي ان تكون انت الذي ارتطم بحجر .

انا : اذن فأنت تريد أن تبقى بمفردك مع ماما ؟

هو : نعم !

انا : بسبب أي شيء وبختك ، في الواقع ؟

هو : لا اعرف (!!!) .

انا : لماذا ؟

هو : لأنك تغضب .

انا : لكن هذا غير صحيح !

هو : بلى ، صحيح ، انك تغضب ، أعرف ذلك ، لا بد أنه صحيح .

« من الواضح انه لم يتأثر تأثراً ملحوظاً بما شرحته له من أن

(٤٥) هكذا يكون فريتز قد وقع حقاً ، وهو ما كان هانز انكره من قبل .

صغار الصبيان هم وحدهم الذين يأتون إلى فراش أمهم ، بينما الكبار ينامون في فراشهم » .

« يذهب بي الظن الى ان الرغبة في « معاكسة » الحصان ، أي ضربه والصياح به ، لا تنصب ، كما زعم هانز ، على أمه ، بل عليّ أنا . وأرجح الظن انه لم يضع امه في الصدارة إلا لأنه ما كان يريد أن يقر أمامي بشعوره الأخير . وفي الايام القليلة الماضية اظهر نحوي وداً ملحوظاً » .

ونبادر هنا ، معتمدين على التفوق الذي نكتسبه بيسر وسهولة بعد انقضاء الحدث ، الى تصحيح تأويل الأب : فرغبة هانز في « معاكسة » الحصان تقوم على عنصرين مقوِّمين اثنين : شهوة غامضة ، سادية ، إلى أمه ، وحفزة واضحة الى الأخذ بثأره من ابيه . وما كان لهذه الحفزة ان تعلن عن نفسها قبل أن تظهر تلك الشهوة الى النور ارتباطاً بعقدة الحبل . وعندما يتكون رهاب ابتداء من افكار لاشعورية كامنة ، يحدث تكثيف ، ولهذا لا يمكن لمسار التحليل ابداً ان يتبع مسار تمخض العصاب .

* * *

« ٢٢ نيسان . تخيل هانز من جديد هذا الصباح شيئاً ما : غلام من غلمان الشوارع يسافر في عربة قطار شحن ؛ يصل السائق ويجرده من ثيابه ويعريه تماماً ويدعه هناك الى صباح اليوم التالي ؛ وفي الصباح يعطي الغلام للسائق ٥٠ ٠٠٠ فلوران كيما يدعه يتابع السفر في العربة » .

« ان النوردبان[٤٦] يمر بمواجهة بيتنا تماماً . وعلى سكة فرعية كانت تقف عربة صغيرة كان هانز قد رأى في احد الأيام غلاماً يركب عليها ، فتمنى لو أنه يفعل مثله . لكني قلت له حينئذ إن ذلك غير مسموح

(٤٦) اي سكة حديد الشمال . «م» .

به ، وإنه ان فعل فإن السائق « سيزعل » منه . وينطوي التخييل على عنصر ثانٍ ، وهو رغبة مكبوتة في التعري » .

لقد تسنى لنا ان نلاحظ ، منذ بعض الوقت ، ان مخيلة هانز تعمل ضمن نطاق « وسائل الاتصال »[٤٧] ، وتتقدم بالتالي من الحصان الذي يجر العربة الى السكك الحديدية . وهكذا فإن كل رهاب من أرهبة الشوارع يقترن به مع الوقت رهاب من أرهبة السكة الحديدية .

« علمت بعد الظهر أن هانز لعب طوال الصباح بدمية من **المطاط كان يدعوها غريتا . وقد أدخل مدية صغيرة في الفتحة التي ثبتت بها الصفارة الصغيرة المسطحة ، ثم مزق ما بين ساقي الدمية بحيث يمكن للنصل ان يخرج من هذا الموضع . وقال عندئذ للخادمة وهو يريها ما بين ساقي الدمية : « انظري ، هي ذي فرفورتها ! » .**

انا : ما اللعبة التي لعبتها اليوم مع الدمية ؟

هو : مزقتها بين ساقيها ، أتعرف لماذا ؟ لأنه كان بداخلها مدية هي لماما. وقد أدخلتها من الفتحة التي يصرخ منها رأسها ، ثم مزقتها بين ساقيها ، فخرجت المدية من هناك .

انا : لماذا مزقتها بين ساقيها ؟ ألترى فرفورتها ؟

هو : كانت فرفورتها موجودة من قبل . وكان بوسعي ان اراها على كل حال .

أنا : لماذا وضعت المدية في داخلها ؟

هو : لا أعرف .

أنا : ماذا كانت المدية تشبه ؟

« فجاءني بها » .

---

(٤٧) كلمة الاتصال بالالمانية VERKEHR تعني ، كما بالعربية ، العلاقة ، المعاشرة ، التجارة ، النقل ، والوصال الجنسي ، ومن ثم فهي تهيىء اساساً نفسياً لاشعورياً لأرهبة السكة الحديدية .
هامش الترجمة الفرنسية .

انا : لعلك تخيلت انها طفل صغير ؟

هو : كلا ، لم أتخيل شيئاً على الاطلاق ، لكن يبدو لي ان اللقلق كان لديه مرة طفل صغير ، أو أحد ما غيره .

أنا : متى ؟

هو : ذات مرة . سمعت بذلك ، او لعلي لم أسمع به اطلاقاً ؟ او ربما قلت ذلك مواربة ؟ .

انا : ماذا تعني بقولك : **مواربة** ؟

هو : أعني أن ذلك غير صحيح .

انا : كل ما يقوله المرء يكون صحيحاً الى حد ما .

هو : اوه ! نعم ، الى حد قليل .

انا (بعد ان غيَّرت موضوع الحديث) : كيف تتصور أن الفراخ تخلق ؟

هو : ان اللقلق هو الذي يجعلها تكبر . اللقلق يجعل الفراخ تكبر ـ كلا ، بل الله تعالى .

« شرحت له أن الدجاجات يبضن بيضاً ، وأنه من البيض تخرج دجاجات أُخَر .

« ضحك هانز .

انا : لماذا تضحك ؟

هو : لأن ما تقوله لي يعجبني .

« وقال لي إنه كان رأى ذلك من قبل .

انا : اين ؟

هانز : أنت فعلت ذلك .

انا : أين بضت انا بيضة ؟

هانز : في غموندن ، بضت بيضة في الحشيش ، وللحال خرجت منها فرخة . لقد بضت بيضة ذات يوم ، أعرف ذلك ، أعرف أن هذا مؤكد . لأن ماما هي التي قالته .

أنا : سأسأل ماما ان كان ذلك صحيحاً .

هانز : هذا غير صحيح على الاطلاق ، لكني **أنا** بضت مرة بيضة فخرجت منها فرخة .

انا : اين ؟

هانز : في غموندن ، تمددت على الحشيش ، كلا ، ركعت على ركبتي ، وما كان الاولاد يرونني على الاطلاق ، وفجأة في الصباح قلت : « ابحثوا ، يا اولاد ، بالأمس بضت بيضة ! » . وفجأة نظروا ، وفجأة رأوا بيضة ، وخرج منها هانز صغير . لماذا تضحك ؟ ماما لا تعرف ذلك ، وكارولين لا تعرف ذلك ، لأن ما من أحد كان يراني وفجأة بضت بيضة ، وفجأة خُلقتْ . حقيقةً . متى تكبر الفرخة ، يا بابا ، في البيضة ؟ عندما تترك وشأنها ؟ هل يجب أن نأكلها ؟

« شرحت له الأمر .

هانز : حسناً جداً ، فلندع البيضة للدجاجة ، فعندئذ تخرج منها فرخة . ولنلفها في الصندوق ولنحملها الى غموندن » .

لقد امسك هانز بجرأة بمسار تحليله بين يديه،بعد ما تردد والداه في إعطائه الايضاحات التي كان عليهما أن يزوداه بها منذ وقت بعيد ؛ وبفعل أعراضيٍ صارخ قال لهما : **انظرا ، هاكما كيف ان الولادة تحدث**. أما ما قاله للخادمة بخصوص مغزى لعبته مع الدمية فلم يكن صادقاً ، إذ حينما سأله أبوه هل كان يريد فقط ان يرى فرفورتها نفى ذلك بصراحة . ولما فسر له ابوه بعد ذلك ، وكأنما يسدد قسطاً من دينه ، كيف تخرج الصيصان من البيض ، ائتلف عدم رضاه وريبته ومعرفته المتفوقة بالأمر في تهكم رائع ارتفع ، في عباراته الأخيرة ، الى حد التلميح السافر الى مولد أخته .

أنا : ماذا كنت تلعب مع دميتك ؟

هانز : كنت اناديها : غريتا .

انا : لماذا ؟

هانز : لأني كنت اناديها غريتا .

انا : كيف كنت تلعب ؟

هانز : كنت أعتني بها وكأنها طفل صغير حقيقي .

انا : هل تحب ان تكون لك بنت صغيرة ؟

هانز : اوه نعم ! لمَ لا ؟ أحب لو كانت لي بنت ، لكن ماما لا ينبغي ان تكون لها بنت صغيرة ؛ أنا لا أحب ذلك .

كثيراً ما كان أفصح عن هذه الفكرة . كان يخشى ، إذا ما جاء طفل ثالث ، ان يفقد المزيد من امتيازاته .

انا : لكن النساء وحدهن يكون لهن اطفال .

هانز : سيكون لي بنت صغيرة .

انا : من اين ستأتي بها إذن ؟

هانز : حسناً ، من اللقلق . **انه يخرج البنت الصغيرة** ، والبنت الصغيرة تبيض حالاً بيضة ، ومن البيضة تخرج آنا اخرى ـ آنا اخرى بعد . من آنا تخرج آنا اخرى . كلا ، تخرج آنا **واحدة** .

انا : أتود كثيراً لو كانت لك بنت صغيرة ؟

هانز : **نعم ، ستكون لي واحدة في السنة القادمة** ، وسيكون اسمها آنا ايضاً .

انا : لكن لماذا لا ينبغي ان يكون لماما بنت صغيرة ؟

هانز : لأنني انا أريد ان تكون لي مرة بنت صغيرة .

انا : ولكن لا يمكن ان تكون لك بنت صغيرة .

هانز : أوه بلى ! إن للصبيان الصغار بناتاً ، وللبنات الصغيرات صبياناً[٤٨] .

انا : الصبيان الصغار لا يمكن ان يكون لهم اولاد . النساء وحدهن ، الماما ، هن اللواتي يكون لهن اولاد .

(٤٨) هذا أيضاً جزء من النظرية الجنسية الطفلية ذات الدلالة اللامتوقعة .

هانز : ولكن لماذا لا يكون لي أنا ؟

أنا : لأن الله تعالى رتب الأمور على هذا النحو .

هانز : لماذا لا يكون لك انت ايضاً ولد ؟ اوه نعم ، سيكون لك بكل تأكيد انت ايضاً ولد ، عليك فقط ان تنتظر .

انا : سأنتظر في هذه الحال طويلاً !

هانز : ولكني انا لك .

انا : لكن ماما هي التي أنجبتك . فأنت اذن لماما ولي .

هانز : هل آنا لي أو لماما ؟

انا : لماما .

هانز : كلا ، بل لي . لماذا لا تكون لي ولماما ؟

انا : آنا هي لي ولماما ولك .

هانز : اذن أرأيت ! » .

وبالفعل ، ما دام الطفل لم يكتشف وجود الاعضاء التناسلية عند المرأة ، فإن عنصراً أساسياً ينقصه لفهم العلاقات الجنسية .

* * *

« في ٢٤ نيسان تلقى هانز مني ومن زوجتي ايضاحات وصلت إلى نقطة معينة : فقد أعلمناه أن الاطفال يكبرون داخل أمهاتهم ، ثم يُدفعون بعد ذلك الى الخارج ـ وهو شيء مؤلم جداً ـ مثل « اللومف » ، وهكذا يكون مولدهم .

« وقفنا بعد الظهر امام باب البيت . كان تحسن ظاهر قد طرا على حالته ، إذ راح يجري خلف العربات ، والشيء الوحيد الذي كان ينم عن بقية من حصر لديه أنه ما كان يجازف بتخطي الدائرة المحيطة مباشرة بالباب الخارجي ، وأنه ما كان من الممكن حمله على القيام بأية نزهة طويلة .

« في ٢٦ نيسان انقض هانز نحوي ونطحني برأسه في بطني ، مثلما كان فعل مرة من قبل . فسألته ان كان عنزة . فقال :

« نعم ، كبش » .

« سألته اين رأى كبشاً » .

هو : في غموندن ، كان لدى فريتز واحد (كان لدى فريتز حمل حي ليلاعبه) .

انا : قصَّ علي ما كان يفعله ذلك الحمل .

هانز : انت تعرف ، كانت الآنسة متزي (معلمة مدرسة كانت تقطن في البيت) تضع دوماً آنا فوق الحمل ، لكنه ما كان يستطيع عندئذ ان ينهض ، ولا يستطيع ان ينطح برأسه . حينما نقترب منه ، فإنه ينطح ، لأن له قروناً . وكان فريتز يجره بحبل ويربطه إلى شجرة . انه يربطه دوماً الى شجرة . .

انا : هل نطحك الحمل برأسه ؟

هانز : لقد وثب علي . أخذني فريتز مرة إلى مقربة منه .. اقتربت منه مرة دون علمي ، فوثب فجأة علي . كان ذلك مسلياً جداً ـ ولم أخف . « كان واضحاً ان ذلك غير صحيح .

انا : هل تحب بابا ؟

هانز : اوه نعم !

انا : لعلك لا تحبه ايضاً ؟

« كان هانز يلعب آنئذ بلعبة هي عبارة عن حصان صغير . وفي تلك اللحظة وقعت منه اللعبة . فهتف : « الحصان وقع ! انظر ، ما أقوى الضجيج الذي أحدثه ! » .

انا : هناك شيء يضايقك في بابا ، لأن ماما تحبه .

هانز : كلا .

انا : اذن لماذا تبكي دائماً كلما قبلتني ماما ؟ أليس ذلك لأنك غيران ؟

هانز : بلى ، هو كذلك .

انا : ماذا كنت ستفعل لو كنت بابا ؟

هانز : وكنت أنت هانز ؟ ـ كنت سآخذك إلى لاينز كل يوم أحد ، كلا ، بل في كل ايام الاسبوع . لو كنت انا بابا لكنت دوماً في غاية اللطف .

انا : وماذا كنت ستفعل مع ماما ؟

هانز : كنت سآخذها ايضاً إلى لاينز .

انا : وماذا ايضاً ؟

هانز : لا شيء .

انا : اذن لماذا انت غيران ؟

هانز : لا اعرف .

انا : هل كنت في غموندن ايضاً غيران ؟

هانز : في غموندن لا (هذا غير صحيح) ، في غموندن كانت لي اشيائي الخاصة ، في غموندن كان لي بستان وكذلك اولاد .

انا : هل يمكنك ان تتذكر كيف حصلت البقرة على عجلها الصغير ؟

هانز : اوه نعم ، جاء بالعربة (هذا ما قيل له في أرجح الظن في غموندن ؛ ثم إن هذا طعن في نظرية اللقلق) . وبقرة اخرى دفعته خارج مؤخرتها (هذه بلا شك ثمرة الايضاحات التي قدمت لهانز والتي مثلت له معطيات جديدة حاول التوفيق بينها وبين « نظرية العربة ») .

انا : غير صحيح ان العجل جاء بالعربة ، بل خرج من البقرة التي كانت في الاصطبل .

« جادل هانز في ذلك ، قائلاً إنه رأى العربة في صبيحة ذلك اليوم . فلفتُّ نظره إلى انه من المحتمل ان يكونوا ذكروا له أن العجل الصغير جاء بالعربة . فسلم بذلك في نهاية الأمر : « الارجح ان برتا هي التي أخبرتني بذلك ، أو كلا ، ربما المالك . فقد كان هناك ، وكان الوقت ليلاً ، إذن فصحيح ما قلته لك ، أو يبدو لي أن ما من أحد أخبرني بذلك ، وأنني انا الذي تخيلته بمفردي طوال الليل » .

« إن لم اكن مخطئاً ، فإن العجل الصغير اقتيد في عربة ، ومن هنا كان الخلط .

انا : لماذا لم تتخيل ان اللقلق هو الذي أتى به ؟

هانز : لم أشأ ان أتخيل ذلك .

أنا : لكنك تخيلت ان اللقلق أتى بآنا ؟

هانز : في الصباح (صباح يوم الولادة) تخيلت ذلك ـ . قل لي يا بابا ، هل كان السيد رايزنبشلر (المالك) موجوداً هناك عندما خرج العجل الصغير من البقرة ؟[٤٩] .

انا : لا أعرف . هل تعتقد ذلك ؟

هانز : أعتقد ذلك ... بابا ، هل لاحظت أحياناً ان ثمة أحصنة لها شيء أسود على الفم ؟

انا : أجل ، لاحظت ذلك مراراً في الشارع في غموندن[٥٠] .

انا : في غموندن ، هل كنت تأتي كثيراً إلى فراش ماما ؟

هانز : نعم .

انا : عندئذ كنت تتخيل انك بابا ؟

هانز : نعم .

أنا : عندئذ كنت تخاف من بابا ؟

هانز : **انت تعرف كل شيء ؛ أنا ما كنت أعرف شيئاً** .

انا : حين وقع فريتز فكرت في نفسك : آه لو ان بابا يقع هكذا ! وحين نطحك الحمل برأسه فكرت : آه لو أنه ينطح بابا برأسه ! هل تذكر الدفن في غموندن ؟ (أول دفن شهده هانز . وهو كثيراً ما يذكره ، وهذه

---

(٤٩) إن هانز ـ ولديه من الأسباب ما يحمله على الارتياب في المعلومات التي يزوده بها الكبار ـ يتساءل هنا عما إذا كان المالك أجدر بالتصديق من أبيه .

(٥٠) ان ترابط الافكار هو كالتالي : فوالد هانز لم يشأ ، لمدة طويلة من الزمن ، أن يصدق ما كان يقوله هانز عن وجود شيء أسود حول فم الأحصنة ، الى ان ثبتت صحة ذلك في خاتمة المطاف .

بلا أدنى شك ذكرى ستارية)[٥١] .

هانز : نعم ، وماذا بعد ؟

انا : يومئذ فكرت في نفسك : لو أن بابا مات لصرت انا بابا ؟

هانز : نعم .

انا : من أي العربات ما تزال تخاف في الواقع ؟

هانز : منها كلها .

انا : انت تعرف ان ذلك غير صحيح .

هانز : انني لا اخاف من عربات الاجرة ولا من العربات ذات الحصان الواحد . انني اخاف من الاومنيباسات ، من عربات الامتعة ، ولكن فقط حين تكون محملة ، وليس عندما تكون فارغة . عندما يكون هناك حصان واحد ، وعندما تكون العربة محملة بتمامها فعندئذ أخاف ، وعندما يكون هناك حصانان وتكون العربة محملة بتمامها فعندئذ لا أخاف .

انا : أتخاف من الاومنيباسات لأنه يوجد في داخلها كثير من الناس ؟

هانز : لأنه يوجد في أعلاها كثير من الامتعة .

انا : حينما كانت ماما على وشك ان تنجب آنا ، أفما كانت محملة هي الأخرى بتمامها ؟

هانز : ماما ستحمَّل مرة اخرى بتمامها حينما ستنجب ولداً آخر ، حينما سيبدأ ولد آخر يكبر فيها ، حينما سيوجد طفل آخر في داخلها .

انا : هل تحب ان يحدث ذلك ؟

هانز : نعم .

---

(٥١) الذكرى الستارية SOUVENIR - ECRAN : ذكرى طفلية تتميز في آن واحد بجلائها الكبير والتفاهة الظاهرية لمضمونها ، وهي مثلها مثل الهفوة أو زلة اللسان ، او العرض بصورة أعم ،تحجب ، كالستارة ، بعض التخييلات اللاشعورية الاساسية .

انا : كنت قلت انك لا تريد ان تنجب طفلاً آخر .

هانز : حسناً ، انها لن تُحمَّل عندئذ مرة اخرى . ماما قالت انها اذا لم تعد تريد طفلاً، فإن الله تعالى لن يريد هو الآخر طفلاً. إذا لم تعد ماما تريد طفلاً آخر، فلن يكون لها طفل آخر (كان هانز بالأمس قد سأل بالطبع ما إذا كان لا يزال هناك اطفال آخرون في داخل أمه . فقلت له أن لا ، وإن الله تعالى إن كان لا يريد ذلك ، فلن ينمو أي طفل في داخلها) .

هانز : لكن ماما قالت انها اذا كانت لا تريد طفلاً آخر ، فلن ينمو فيها طفل آخر ، أما أنت فتقول : إذا كان الله تعالى لا يريد .

« أجبته إن الأمر هو كما قلت له ، فرد على ذلك ملاحظاً : « لقد كنت هناك، أليسَ كذلك؟ إذن فأنت بالتأكيد تعرف الأمر بشكل أفضل».

« استفسر عندئذ أمه عن قولها المناقض ، فوفقت ما بيننا بأن قالت بأن ما لا تريده هي لا يريده الله تعالى ايضاً[٥٢] .

انا : لكن يخيل إلي مع ذلك انك تتمنى لو ان ماما تنجب طفلاً ؟

هانز : لكني لا أرغب في ان يحدث ذلك .

انا : لكنك تتمناه ؟

هانز : أتمناه ، نعم .

انا : أتعرف لماذا تتمناه ؟ لأنك تريد أن تكون بابا .

هانز : نعم ... اذن ما هذه القصة ؟

انا : اية قصة ؟

هانز : انت تقول ان الأب لا يمكن ان ينجب طفلاً ، فما هذه القصة التي ترويها عن أنني أريد ان اكون بابا ؟

---

(٥٢) CE QUE FEMME VEUT DIEU LE VEUT (بالفرنسية في النص ، وهو قول سائر ترجمته : ما تريده المرأة يريده الله . «م») . غير ان هانز، بحسه المرهف، وضع هنا من جديد إصبعه على مشكلة بالغة الخطورة .

انا : انت تريد ان تكون بابا وان تتزوج ماما ، وتريد ان تكون كبيراً مثلي وان يكون لك شارب ، وتريد ان تنجب ماما طفلاً .

هانز : بابا ، عندما سأتزوج فلن يكون لي طفل إلا إذا أردت ذلك ، وذلك عندما أتزوج ماما ، وإذا لم أرد طفلاً فإن الله تعالى لن يريد هو الآخر طفلاً متى ما تزوجت .

انا : هل تحب ان تتزوج ماما ؟

هانز : اوه نعم ! » .

من السهل ان نتبين كيف ان المتعة التي يجدها هانز في تخييله ما تزال معكرة بسبب عدم يقينه من دور الأب وشكوكه بصدد إمكان التحكم بإنجاب الاطفال .

* * *

« في مساء اليوم نفسه قال لي هانز ونحن نضعه في فراشه : « أتعرف ، يا بابا ، ماذا سأفعل الآن ؟ سأتكلم حتى الساعة العاشرة مع غريتا ، فهي في الفراش معي . ان اولادي هم دوماً معي في فراشي . هل بوسعك أن تقول لي كيف يحصل ذلك ؟ » ـ وبما أنه كان شديد النعاس ، فقد وعدته بتدوين ذلك كله في اليوم التالي ، ومن ثم غرق في النوم .

« كنت قد أشرت ، في التقارير السابقة ، إلى ان هانز ما يزال ، منذ عودته من غموندن، يتخيل خيالات بصدد «اولاده»، ويدير احاديث معهم ، وهلم جراً(٥٣) .

« وعليه فقد سألته ، يوم ٢٦ نيسان ، لماذا يتكلم على هذا النحو دوماً عن اولاده .

(٥٣) ليس من الضروري هنا أن نفترض ان هانز توجد عنده رغبة ، من طبيعة مؤنثة ، في إنجاب أطفال . فمع أمه عاش هانز ، طفلاً ، أسعد أوقاته ؛ وهو يسترجعها الآن ، مضطلعاً بالدور الايجابي ، أي دور الأم .

هانز : لماذا ؟ **لأنني احب كثيراً لو يكون لي اولاد ، لكني لا اتمنى ذلك ابداً ، لا احب ان يكون لي اولاد**(٥٤) .

انا : هل كنت تتخيل دائماً ان برتا واولغا والآخرين هم اولادك ؟

هانز : نعم ، فرانزل وفريتز ، وكذلك بول (رفيقه في لاينز) ولودي (اسم بنت تخيله لطفلته المفضلة التي يتكلم عنها كثيراً جداً) ـ ويجدر بي أن أنوه هنا بأن شخصية لودي ليست من ابتكار الايام القليلة الماضية ، بل كانت موجودة قبل تاريخ تزويده بالايضاحات الاخيرة (٢٤ نيسان) .

انا : من هي لودي ؟ هل تعيش في غموندن ؟

هانز : كلا .

انا : هل هناك وجود للودي ؟

هانز : أجل ، وأنا أعرفها .

انا : من هي اذن ؟

هانز : انها التي معي هنا .

انا : ما شكلها ؟

هانز : شكلها ؟ عيناها سوداوان ، شعرها اسود ... لقد قابلتها مرة مع ماريدل (في غموندن) بينما كنت أتنزه في المدينة .

« لما اردت ان أتعمق في الأمر اكتشفت ان كل شيء مبتدع(٥٥).

انا : اذن فقد تخيلت أنك أمهم ؟

(٥٤) إن هذا التناقض الصارخ هو التناقض القائم بين الخيال والواقع ، بين الرغبة والحيازة . فهو يعلم انه في الواقع طفل ، وان أطفالاً آخرين من شأنهم ان يكونوا مصدر مضايقة له ؛ لكنه في خياله هو الام ، وبحاجة الى اطفال يجدد معهم ضروب الحنان التي كان هو نفسه فيما مضى موضوعاً لها .

(٥٥) على أنه من الممكن أن يكون هانز قد رفع إلى مرتبة المثال شخصاً التقاه مصادفة في غموندن . وعلى كل ، فان لون عيني هذا المثال ولون شعره منسوخ عن لون عيني أمه وشعرها .

هانز : كنت ايضاً حقاً أمهم .

انا : ماذا كنت تفعل اذن مع اولادك ؟

هانز : كنت أدعهم ينامون معي ، بناتاً وصبياناً .

انا : في كل يوم ؟

هانز : نعم ، بالتأكيد .

انا : وكنت تكلمهم ؟

هانز : عندما كنت لا أستطيع ان أضع جميع الاولاد معي في الفراش ، كنت أضع بعضهم على الاريكة ، وكنت أجعل بعضهم الآخر يجلس في عربة الاطفال ؛ فإن بقي منهم بعد ، كنت أحملهم الى السقيفة وأضعهم في الصندوق ؛ وان بقي منهم بعد ايضاً كنت أضعهم في الصندوق الآخر .

انا : اذن فصناديق اطفال اللقلق كانت في السقيفة ؟

هانز : نعم .

انا : متى أنجبت اولادك ؟ هل كانت آنا وقتئذ قد خلقت ؟

هانز : نعم ، منذ زمن بعيد .

انا : لكن ممن تعتقد انك أنجبت الاولاد ؟

هانز : **بالتأكيد مني انا**[٥٦] .

انا : لكنك ما كنت تعرف حينئذ على الاطلاق أن الاولاد يأتون من شخص ما .

هانز : تخيلت ان اللقلق اتى بهم (كذب وتهرب بطبيعة الحال)[٥٧] .

---

(٥٦) لا يستطيع هانز أن يجيب من وجهة نظر أخرى غير وجهة نظر الايروسية الذاتية .

(٥٧)كانوا أطفال خياله ، اي اونانيته . (الأونانية : نسبة الى أونان ، وهو رجل ذكرت التوراة انه كان يمارس الجماع المبتور ، فكانت زوجته ، وهي امرأة أخيه المتوفى ، تستمني . «م») .

انا : بالأمس كانت غريتا في فراشك ، لكنك تعلم جيداً ان الصبي لا يمكن ان ينجب اولاداً .

هانز : نعم ، نعم . لكني اعتقد ذلك على كل حال .

انا : كيف عثرت على اسم لودي ؟ ما من بنت صغيرة لها هذا الاسم . ربما لوتي ، بالاحرى ؟

هانز: اوه كلا! لودي. لا اعرف، ولكنه على كل حال اسم جميل.

انا (مازحاً) : ربما كنت تقصد **شوكو لودي**[٥٨] ؟

هانز (على الفور) : كلا ، بل سافالودي[٥٩] ... لأنني احب **النقانق والسالامي**[٦٠] .

انا : قل لي ، الا يشبه السافالودي لومفاً ؟

هانز : بلى .

انا : واللومف ما شكله اذن ؟

هانز : اسود . انت تعرف (مشيراً الى حاجبيَّ وشاربي) كهذا وكهذا .

انا : وماذا ايضاً ؟ أهو مكور مثل السافالودي ؟

هانز : نعم .

انا : عندما تجلس على القصرية وينزل لومف ، هل سبق ان تخيلت أنك توشك ان تلد طفلاً ؟

هانز : نعم . من قبل في شارع ن ... وكذلك هنا .

انا : أتعرف ، عندما وقعت احصنة الاومنيباس ؟ لقد كانت العربة تشبه صندوق اللقلق ، وعندما وقع الحصان الاسود كان ذلك كأنما ...

هانز (مكملاً) ... كأنما طفل يوشك ان يولد .

---

(٥٨) بالألمانية يقال للشوكولاته شوكولادا . «م» .

(٥٩) « سافالادي » نقانق مطبوخة . ويحلو لزوجتي أن تروي أن خالتها تلفظها دوماً سوفيلودي . وربما يكون هانز سمع ذلك » .

(٦٠) السالامي : نوع ايطالي من النقانق . «م» .

انا : وماذا تخيلت عندما أحدث ضجيجاً بأقدامه ؟

هانز : حسناً ، عندما لا أريد ان اجلس على القصرية وأفضل ان العب ، فإنني أفعل عندئذ ضجيجاً بقدمي هكذا (ضرب الارض بقدميه) .

« من هنا كان اهتمام هانز بالسؤال التالي : هل يحب الناس أو لا يحبون ان يكون لهم اولاد ؟

« لعب هانز اليوم طوال النهار لعبة تحميل عربات الامتعة وتفريغها ، وقال إنه يود لو يحصل على عجلة طنبر وصناديق لتكون لعبة له . وكان اكثر ما يجذب اهتمامه في فناء محطة الجمارك المركزية المواجهة لنا تحميل العربات وتفريغها . وكان خوفه يشتد الى أقصى حد عند الانتهاء من تحميل عربة من العربات وتهيؤها للرحيل . كان يقول : « الاحصنة ستقع »[٦١] . وكان من عادته ان يسمي أبواب عنبر محطة الجمارك المركزية « فتحة » (ومن ثم : الفتحة الأولى ، الفتحة الثانية ، الفتحة الثالثة) . ولكنه يقول الآن بدلاً من فتحة : « فتحة المؤخرة » .

« اختفى الحصر تماماً تقريباً ، خلا أنه يؤثر البقاء بجوار البيت ، كيما يكون في وسعه الانسحاب اذا ما استولى عليه الخوف . بيد انه ما عاد يلوذ بحمى البيت ، بل يبقى طول الوقت في الشارع . وكما نعلم ، فقد بدأ مرضه يوم عاد باكياً من احدى النزهات ، ولما قسرناه على الخروج في نزهة ثانية ، لم يذهب الى ابعد من محطة الجمارك المركزية في شتاتبان ، حيث يظل في الامكان رؤية بيتنا منها . وعندما وضعت زوجتي فُصل عنها بطبيعة الحال ، وما حصره الحالي ، الذي يمنعه من الابتعاد عن جوار البيت ، إلا الحنين الذي ساوره الى أمه آنئذ » .

* * *

(٦١) الا يقال NIEDERKOMMEN (حرفياً : جاء الى اسفل) حين تضع المرأة ؟ هذا بالألمانية . وبالفرنسية ايضاً يقال : METTRE BAS (حرفياً : وضع الى اسفل) لأنثى الدواب حين تلد . هامش الترجمة الفرنسية .

« ٣٠ نيسان . فيما كان هانز يلعب من جديد مع اولاده الخياليين ، قلت له : « كيف ما يزال اولادك أحياء ؟ فأنت تعلم حق العلم ان الصبي لا يمكن ان ينجب أولاداً » .

هانز : اعرف ذلك . من قبل كنت لهم ماما . **أما الآن فإنني بابا** .

انا : ومن هي أم اولادك ؟

هانز : حسناً ، انها ماما ، وأنت الجد .

انا : اذن فأنت تريد ان تكون كبيراً مثلي ، وأن تتزوج ماما ، وعندئذ يتوجب عليها ان تنجب اولاداً .

هانز : نعم ، هذا ما أرغب فيه ، وعندئذ فان تلك التي في لاينز (أمي)[٦٢] ستكون جدتهم » .

ان الامور تمضي الى نهايتها الحسنة . فأوديب الصغير اهتدى الى حل أحسن توفيقاً من ذاك الذي سطرته الاقدار . فبدلاً من أن يقتل أباه ، منحه السعادة نفسها التي كان يطمح اليها هو ؛ رقاه الى مرتبة جد وزوّجه بدوره من أمه .

* * *

« في الأول من أيار جاءني هانز ساعة الغداء وقال لي : « أتعرف ؟ دعنا نكتب شيئاً الى الاستاذ » .

انا : مثل ماذا ؟

هانز : هذا الصباح كنت مع جميع اولادي في المرحاض . في البداية عملت لومف وفرفرت ، وكانوا ينظرون. عندئذ أجلستهم على المرحاض ، ففرفروا وعملوا لومف ، ومسحت مؤخرتهم بالورق . أتعلم لماذا ؟ لأنني أحب كثيراً ان يكون لي أولاد ؛ فعندئذ سأفعل كل شيء من أجلهم ، وسآخذهم الى المرحاض ، وسأنظف مؤخراتهم ، وسأعمل لهم كل ما يُعمل للاولاد » .

(٦٢) أي أم والد هانز . «م» .

انه لمن الصعب ، بعد الاعتراف الذي انطوى عليه ذلك التخييل ، ان نماري في أن الوظائف الإخراجية عند هانز مشحونة باللذة .

« بعد الظهر عامر بالذهاب لأول مرة الى شتادبارك . وبما أن ذلك اليوم كان الأول من أيار ، فقد كان عدد العربات القمينة بأن تثير رعبه أقل من المعتاد ، ولكنه كان على كل حال كافياً . انه مزهو جداً بانجازه ، وكان علي بعد التعصيرة[٦٣] أن أصحبه من جديد الى شتادبارك . في الطريق التقينا بأومنيباس ، فأشار إليه قائلاً : « انظر ، عربة بصندوق اللقلق ! » . واذا ما جاء هانز معي غداً الى شتادبارك ، كما اتفقنا ، فبوسعنا ان نعتبر أنه شفي من مرضه .

« في ٢ أيار جاءني هانز منذ الصباح : « اتعرف ، لقد تخيلت اليوم شيئاً » . في أول الأمر نسيه ، ثم عاد فيما بعد فرواه لي وإن بدت عليه علامات مقاومة شديدة : « **جاء السنكري واقتلع اولاً مؤخرتي بالكماشة ، ثم اعطاني مؤخرة غيرها ، ثم فعل الشيء نفسه بفرفورتي** . وقد قال لي : « دعني أرى مؤخرتك » ، فكان علي عندئذ ان أستدير ، فاقتلعها ، ثم قال : « دعني أرى فرفورتك » .

لقد أدرك الأب دلالة هذا التخييل الرغبي[٦٤] ، ولم يساوره الشك لحظة في التأويل الوحيد الذي ينطوي عليه .

انا : **اعطاك فرفورة اكبر و مؤخرة اكبر** .

هانز : نعم .

انا : مثل ما عند البابا ، لأنك ترغب في أن تكون بابا ؟

هانز : نعم ، وأرغب ايضاً في ان يكون لي شارب مثلك ، وكذلك شعر مثلك (أشار الى الشعر على صدري) .

---

(٦٣) التعصيرة : عند العامة ، الطعام الخفيف الذي يتم تناوله عصراً ما بين الغداء والعشاء . «م» .

(٦٤) الرغبي : النسبة من الرغبة . «م» .

« ينبغي على ضوء هذا ان نصحح تأويل تخييل هانز السابق الذي تصور بموجبه أن السنكري حضر وفك المغطس ، وغرز مثقباً في بطنه . فالمغطس الكبير يعني « المؤخرة » ، والمثقب أو الكماشة يعني الفرفورة ، كما سبق لنا تأويل ذلك[٦٥] . فالتخييلان متطابقان .

« ان ضوءاً جديداً قد سُلط ايضاً على خوف هانز من المغطس الكبير ، وهذا الخوف قد تناقص أصلاً . فهو يكره ان تكون « مؤخرته » صغيرة جداً بالقياس الى المغطس الكبير » .

في الايام التالية كتبت لي والدة هانز عدة مرات لتعرب عن غبطتها بشفاء ابنها .

* * *

بعد ذلك بأسبوع كتب إلي والد هانز ما يلي :

« عزيزي الدكتور ،

« بودي ان أضيف ما يلي الى تاريخ مرض هانز :

« ١ - ان خمود المرض ، الذي أعقب الايضاحات الأولى التي زودته بها بخصوص المسائل الجنسية ، لم يكن كاملاً على نحو ما يمكن أن اكون قد صورته . فصحيح ان هانز صار يخرج للنزهة ، ولكن فقط عندما نقسره عليها قسراً ، وفي حال من الحصر الشديد . وقد ذهب معي مرة الى امام محطة الجمارك المركزية ، حيث يظل في الامكان رؤية بيتنا ، لكني ما استطعت قط ان أحمله على الذهاب الى أبعد من ذلك .

---

(٦٥) ربما كان بوسعنا ان نضيف ان كلمة «مثقب» BOHRER لم يقع الاختيار عليها بعيداً عن كل ارتباط بكلمتي « مولود » و « ولادة » GEBOREN, GEBURT . وهكذا لا يكون الصبي ميز بين « مولود » و « مثقوب » GEBOHRT و GEBOREN . وقد اخذت بهذا الرأي عن زميل خبير ، لكن لا يسعني ان اقول هل نحن هنا بصدد رابطة عميقة وعامة بين الفكرتين أم بصدد مجرد توافق لفظي خاص باللغة الالمانية . ان بروميثيوس (برامانثا) ، خالق البشر ، هو أيضاً ، من الناحية الاشتقاقية ، « الثاقب » BOHRER . راجع ابرهـام : **الحلم والاسطورة** ، المجلد ٤ من **كتابات في علم النفس التطبيقي** ، ١٩٠٨ .

« ٢ّ - فيما يتعلق **بشراب التوت ، والبندقية ، التي تقتل**.اننا نعطي هانز شراب التوت حين يكون مصاباً بالقبض . أما SCHIESSEN (يطلق) و SCHEISSEN (يخرى) فكلمتان يخلط بينهما هانز كثيراً .

« ٣ّ - كان هانز في حوالي السنة الرابعة من العمر حين أفردنا له غرفة خاصة . والى ذلك الحين كان ينام في غرفتنا .

« ٤ّ - ثمة رسابة من مرضه ما تزال باقية ، غير أنها لم تعد تتظاهر في صورة خوف، بل في صورة حفزة سوية لدى الأطفال الى طرح الاسئلة . وهذه الاسئلة تنصبّ بصوْرة رئيسية على ما يلي : ممَ تصنع الاشياء (الحافلات الكهربائية ، الآلات ، الخ) ، ومن يصنع الأشياء، الخ؟ وانه لما يميز أغلب هذه الأسئلة أن هانز يطرحها وان يكن سبق له هو نفسه ان أجاب عنها . فهو يبحث فقط عن توكيد . قلت له يوماً وقد ارهقتني أسئلته : « أتعتقد اذن أن في مستطاعي الجواب عن كل ما تسأله ؟ »، فكان رده : « أعتقدت انك ما دمت عرفت بخصوص الحصان فلا بد ان تعرف هذا ايضاً » .

« ٥ّ - ما عاد هانز يتكلم عن مرضه إلا على أنه واقعة تاريخية ماضية : « في السابق عندما كانت عندي الحماقة ... » .

« ٦ّ - الرسابة الكامنة وراء ذلك هي التالية : ان هانز يعصر دماغه ليفهم ما يمكن أن تكون عليه صلة الأب بطفله ما دامت الأم هي التي تنجب هذا الأخير . نستطيع ان نستشف ذلك من أسئلته ، وعلى سبيل المثال عندما يسأل : « إنني أخصك **انت** ايضاً ، أليس كذلك ؟.. (يقصد انه لا يخص أمه وحدها) . أما كيف يخصني ، فهذا غير واضح له . ومن جهة اخرى ، ليس لدي أي دليل مباشر على أنه استرق النظر مصادفة واتفاقاً ، كما تفترض ، الى جماع بين والديه .

« ٧ّ - ربما يكون من الضروري ، في حال عرض هذه الحالة ، التنويه بعنف الحصر ، لأنه يمكن بغير ذلك ان يقال إنه ما كان ليتأخر عن الخروج الى النزهة لو أنه نال علقة ساخنة على إليتيه » .

وختاماً سأضيف ما يلي : إن الحصر ، الصادر عن عقدة الخصاء ، تم التغلب عليه في تخييل هانز الاخير ، فتحول الترقب القلق التي ترقب فرح . اجل ، لقد حضر الدكتور (السنكري) ، واقتلع قضيبه ، ولكنه لم يفعل ذلك ليعطيه عوضاً عنه واحداً اكبر . وأما ما عدا ذلك فإن باحثنا الصغير اكتشف ببساطة ، منذ وقت مبكر ، أن كل ما يعرفه المرء جزئي ، وان كل درجة يرتقيها الانسان في سلم المعرفة تترك وراءها رسابة بغير حل .

(٣)
تعليق

سأتفحص من ثلاث زوايا هذه المعطيات عن تمخض رهاب وانحلاله لدى صبي صغير دون الخامسة من العمر . سأنظر ، أولاً ، في مدى ما تقدمه من تأييد للاطروحات التي تقدمت بها في كتابي **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، المنشور سنة ١٩٠٥ . وسأتقصى ثانياً ، مدى ما يمكن ان تسهم به في تفهم هذه الحالة الباتولوجية الشائعة جداً . وسأتقصى ، ثالثاً ، ما يمكن أن تفيده في مجال استكناه حياة الطفل النفسية وبناء نقد للاهداف التي ننشدها في موضوع التربية .

ـ ١ ـ

يخالجني انطباع بأن لوحة الحياة الجنسية الطفلية التي يمكن استخلاصها من هذا التقرير عن حالة هانز الصغير تتفق أتم الاتفاق مع الوصف الذي تقدمت به عن هذه الحياة في نظريتي الجنسية التي تم بناؤها بالاستناد الى الفحص التحليلي النفسي للراشدين . لكن قبل ان أخوض في تفاصيل هذا التوافق ، ينبغي لي ان أرد على اعتراضين لا بد أن يثارا على استخدامي لهذا التحليل لهذا الغرض . الاعتراض الأول : ان هانز الصغير ليس طفلاً سوياً ، وانما ـ كما يثبت ذلك مرضه ـ طفل لديه استعداد مسبق للعصاب ، أي أنه « منحط »[1] صغير ، ولهذا لا

(١) « منحط » أو «منحل» DÉGÉNÉRÉ: تعبير كان يكثر ، قبل فرويد ، استخدامه في =

يجوز ان تُسحب استنتاجات، قد تكون صحيحة بالنسبة اليه، على اطفال آخرين هم من الاسوياء. على أني سأرجىء الرد على هذا الاعتراض، لأنه يحد فقط من قيمة المعطيات الخاصة بحالة هانز، ولا يلغيها.

اما الاعتراض الثاني والأخطر شأناً فهو التالي : « إن تحليل طفل من قبل أبيه ، ولا سيما إن أقدم هذا الأب على هذا التحليل وهو مشبع بآرائي النظرية ومصاب بعدوى أحكامي المسبقة ، لا بد ان يأتي مجرداً من أية قيمة موضوعية . فالطفل قابل بطبيعة الحال للإيحاء الى أقصى درجة ، وربما من قبل أبيه اكثر منه من قبل اي شخص ، ولسوف يقبل بأي شيء يوحي له به هذا الأب عرفاناً منه بمدى ما يحيطه به من اهتمام ؛ ومن ثم فلا شيء مما يقوله يمكن ان تكون له قوة إقناعية ، وجميع افكاره وخيالاته وأحلامه ستسير بطبيعة الحال في المنحى الذي تدفع فيه بكل الوسائل . خلاصة القول ، مرة أخرى ، إن الأمر كله مجرد « إيحاء » ، مع فارق وحيد وهو ان هتك الستار عن هذا الايحاء أيسر بكثير في حالة الطفل منها في حالة الراشد .

والغريب في الأمر أني ما زلت أذكر مدى السخرية التي كانت تقابل بها ، يوم شرعت أتدخل في المناقشات العلمية ، الآراء المتعلقة بالايحاء وتأثيراته من جانب الجيل القديم من أطباء الاعصاب وأطباء الامراض العقلية . ومنذئذ تبدل الموقف تبدلاً جذرياً ؛ فالنفور الأولي انقلب بسهولة فائقة الى قبول مساير ، وما ذلك الا لما كان لا بد لابحاث ليبيو[2] وبرنهايم[3] وتلاميذهما ان تحدثه من تأثير خلال السنوات

= الأوساط السيكولوجية ، ويشار به الى كل من يشكو من ضعف جسدي أو نفسي أو خلقي ، أو من « فساد » في الجبلّة . « م » .

(٢) ليبيو : طبيب ريفي (١٨٢٣ ـ ١٩٠٤) ، ما لبث ان اشتهر وأسس مع برنهايم عام ١٨٨٤ مدرسة نانسي التي حاولت علاج المرضى النفسيين بالايحاء والتنويم المغنطيسي .

(٣) برنهايم : أستاذ في الطب (١٨٣٧ ـ ١٩١٩) ، اشتهر بكتابه الصادر عام ١٨٨٤ حول : **الايحاء في الحالة النوامية وحالة اليقظة**. «م».

العشرين الماضية فحسب ، بل أيضاً تحت تأثير هذا الكشف : فقد اتضح لبني الانسان مدى ما يمكن اقتصاده في الجهد العقلي في حال استخدام كلمة « إيحاء » في كل ما هب ودب من الامور . وبالفعل ، لا أحد يعرف ولا أحد يبالي بأن يعرف ما هو الإيحاء، ومن أين يصدر، ومتى يحدث ؛ بل يكفي أن يوضع كل ما هو مربك في النفسية البشرية تحت لافتة « الايحاء » .

انني لا أتفق مع وجهة النظر الشائعة اليوم والقائلة إن اقوال الاطفال هي على الدوام اعتباطية وغير جديرة بالتصديق . فالاعتباطية لا وجود لها في الحياة النفسية ، وعدم اليقين في أقوال الاطفال مرده الى غلبة الخيال لديهم ، مثلما ان عدم اليقين في اقوال الراشدين مرده الى غلبة الأحكام المسبقة لديهم. وعلى كلٍ ، فإن الاطفال لا يكذبون هم أيضاً بلا سبب ، وميلهم بالاجمال الى حب الحقيقة أقوى من ميل الكبار . ولو رفضنا جملة وتفصيلاً اقوال صغيرنا هانز ، لارتكبنا بحقه بكل تأكيد إجحافاً كبيراً . وانما الأولى بنا ان نميز تمييزاً واضحاً بين الحالات التي يزور فيها ، تحت ضغط مقاومة ما ، الوقائع أو يكتمها ، وبين الحالات التي يكون فيها هو نفسه متردداً فيجاري اباه في اقواله (وهي حالات ينبغي ألا يؤخذ فيها ما يقوله بعين الاعتبار) ، واخيراً بين الحالات التي تفيض فيها نفسه عفوياً ، وبعيداً عن كل إكراه ، بما تتكون منه حقيقته الصميمة ، وبما لا يعلمه الى ذلك الحين احد سواه . ان أقوال الراشدين لا تنطوي على يقين اكبر . ويبقى من دواعي الاسف أن ما من عرض لتحليل نفسي يستطيع أن يؤدي بدقة الانطباعات التي تساور المحلل ، وأن ما من اقتناع حاسم ونهائي يمكن ان يتولد عن القراءة ، فهذا لا يتأتى إلا من خلال الخبرات الحية التي يعيشها المحلل وهو يقوم بالتحليل . غير أن هذه النقيصة ملازمة بدرجة مماثلة لتحاليل الراشدين .

يصور والدا هانز الصغير ابنهما على أنه طفل مرح ، صريح ،

وهكذا كان ينبغي بالفعل ان يكون بمقتضى التربية التي كانا يوفرانها له والتي كان قوامها الاساسي الابتعاد عن أخطائنا المعهودة في المضمار التربوي . كان هانز ، ما دام متاحاً له أن يوالي استقصاءاته في حالة من السذاجة الفرحة، بدون ان تخطر له ببال الصراعات التي كان محتماً ان تنشأ عنها عما قريب ، كان يفضي بكل شيء بلا تحفظ ، والملاحظات المدونة في تاريخ سابق لرهابه لا يرقى اليها بالفعل شك او شبهة . وانما مع تفجر المرض وفي اثناء التحليل بدأت تظهر الفروق بين ما يقوله وما يعتقده ، وهذا من جهة أولى لأن المادة اللاشعورية ، التي يعجزه ان يتحكم بها دفعة واحدة ، كانت تفرض نفسها عليه فرضاً ، ومن جهة ثانية ، لأن مضمون افكاره ، بحكم علاقاته بوالديه ، كان يستدعي تحفظات . وأعتقد أنني أبقى بعيداً عن التغرض إن تقدمت برأي مفاده أن هذه الصعاب والإشكالات عينها لم تكن هنا اعظم مما في الكثير من تحاليل الراشدين .

صحيح أنه كان من المحتم في اثناء التحليل أن تقال لهانز أشياء كثيرة ما كان في مقدوره هو ان يقولها ، وأن تُقدم اليه افكار ما كان شيء بعد قد كشف عن وجودها لديه ، وأن يُوجه انتباهه في الاتجاه الذي يتوقع أبوه ان ينبثق فيه منه شيء . وكل ذلك يضعف بلا شك من القيمة الاقناعية لهذا التحليل ، ولكن مثل هذا النهج هو المتبع في كل تحليل . ذلك ان التحليل النفسي ليس مبحثاً علمياً متجرداً ، وانما هو اجراء علاجي، وما يرمي اليه، في جوهره، ليس إثبات شيء، بل تعديل شيء. وفي اثناء التحليل النفسي يقدم الطبيب دوماً للمريض ، بقدر يزيد أو ينقص تبعاً للحالات ، التمثلات الشعورية الاستباقية التي بفضلها يتأتى للمريض أن يتعرف ما هو لاشعوري وأن يمسك به . ويختلف المرضى في حاجتهم الى هذه المساعدة ، فمنهم من يحتاج الى قدر كبير منها ، ومنهم من يحتاج الى قدر طفيف ، لكن لا يسع أحداً منهم ان يستغني عنها كلياً . وقد يتمكن المرء من أن يسيطر بمفرده على اضطرابات هينة

الشأن ، ولكنه لا يستطيع ابداً السيطرة على عصاب، إذ ان العصاب شيء ينهض في مواجهته وكأنه عنصر غريب. وللتغلب عليه لا بد من معونة شخص آخر ، وبقدر ما يمكن لهذا الشخص ان يقدم معونته يكون العصاب قابلاً للعلاج . فإن يكن من ماهية هذا العصاب أن يشيح عن هذا « الشخص الآخر » ـ وهذه فيما يبدو سمة مميزة لجميع الحالات التي تندرج تحت اسم الخبل المبكر ـ فعندئذ تبقى مثل هذه الحالات لهذا السبب بالذات مستعصية على جهودنا كافة . ومن ثم يمكننا ان نسلم بأن الطفل ، بحكم النمو الضعيف لأجهزته العقلية ، يحتاج الى مساعدة كبيرة حقاً . غير أن ما يزود الطبيب مريضه به من معلومات انما ينبع في خاتمة الحساب من تجربته التحليلية ، وسيكون اقتناعنا مرتكزاً حقاً على أسس كافية أن توصلنا، بفضل هذا التدخل من جانب الطبيب، الى اكتشاف بنية المادة المسبِّبة للمرض وبالتالي الى تصفية المرض .

على أن مريضنا الصغير دلل ، في اثناء تحليله بالذات ، على قدر من الاستقلال يكفي لتبرئته من تهمة « الايحاء » . وقد طبق ، مثله مثل سائر الاطفال ، نظرياته الجنسية الطفلية على المادة التي كانت متاحة له ، وهذا من دون أي تحريض على ذلك . وهذه النظريات بعيدة غاية البعد عن عقلية الراشدين ؛ والحق أني اذا كنت غفلت عن شيء في هذه الحالة فتحديداً عن تنبيه والد هانز الى ان الطريق الذي يتأدى بهانز الى موضوع الولادة لا بد ان يمر بالعقدة الإخراجية . وهذا الاهمال من جانبي ، وان قضى على التحليل بأن يمر بمرحلة من الغموض ، جاء مع ذلك شهادة رائعة على أصالة العمل العقلي واستقلاله لدى هانز . فقد شرع بغتة يهتم بـ « اللومف » ، بدون أن يفهم والده على الاطلاق ، وهو المتهم بأنه كان يوحي اليه ، كيف وصل به الأمر الى ذلك وما سيتمخض عنه ذلك . كذلك لا يمكن أن نعزو الى إيحاءات الأب أي دور في التخييلين المتمحورين حول السنكري، والمنبثقين عن «عقدة الخصاء» المبكرة الى الظهور لدى هانز ؛ ولزام علي أن أقر هنا بأنني كتمت عن والد هانز ما كنت

أتوقعه من مثل هذه العلاقة ، وذلك لاعتبارات نظرية وحتى لا أضعف القوة الاقناعية لدليل نادراً ما يقع نظيره في أيدينا .

لو تعمقنا اكثر من ذلك في دراسة تفاصيل التحليل لفزنا بوفرة من البراهين الجديدة على استقلالية هانز ازاء «الإيحاء»، لكني سأوقف هنا مناقشة هذا الاعتراض الأول[٤] . فأنا أعلم أنني ، حتى بمثل هذا التحليل ، لن أقنع احداً ممن لا يريدون الاقتناع ؛ لذا سوف أمضي في مناقشة هذه الحالة برسم القراء الذين ترسخ لديهم من قبل الاقتناع بالواقعية الموضوعية للمادة الإمراضية اللاشعورية . وانا أفعل ذلك وكلي ثقة ـ تبعث على الرضى ـ بأن عدد هؤلاء القراء في تزايد مطرد .

* * *

ان اول سمة يمكن اعتبارها لدى هانز جزءاً من حياته الجنسية اهتمامه البالغ الحدة بـ « فرفورته » ، كما يسمي هذا العضو تبعاً لإحدى وظيفتيه ، التي هي بالكاد أقلهما أهمية ، والتي لا سبيل الى تفاديها في طور الحضانة . وهذا الاهتمام جعل من هانز باحثاً مستقصياً ، فاكتشف من ثم انه من الممكن تمييز الحي من الجامد تبعاً لوجود فرفورة أو لعدم وجودها . وقد صادر على أهمية هذا العضو من البدن لدى جميع الكائنات الحية التي تصورها مماثلة له ، ولاحظ وجوده عند الحيوانات الكبيرة ، وافترض أن والديه كليهما مجهزان به ، وما توقف حتى أمام شهادة عينيه فعزا وجوده إلى أخته التي ولدت لتوها[٥] . ويمكننا القول إنها كانت ستكون هزة مروعة لـ « رؤية العالم » عنده لو أنه اضطر الى حزم أمره على التسليم بعدم وجود هذا العضو لدى كائن مماثل له ؛ فقد كان ذلك سيكون وكأنما اقتلع منه هو نفسه . وربما كان هذا هو السبب في أن أمه لما هددته باحتمال خسارة « فرفورته » ما وجد

(٤) الحق انه الاعتراض « الثاني » ، وان يكن فرويد قدمه في المناقشة على الأول . «م» .
(٥) انظر ص ١٦ .

هذا التهديد مكاناً له في فكره ولم يظهر أثره من ثم إلا في وقت لاحق .

وكان الحافز الى تدخل الأم أن هانز كان يطيب له أن يتدبر لنفسه أحاسيس لاذّة بملامسته عضوه الصغير : إذ كان الصبي الصغير قد شرع يمارس الضرب الاكثر شيوعاً ـ والاكثر سواءً ـ من النشاط الجنسي الايروسي الذاتي .

ان اللذة التي حصل عليها هانز في عضوه الجنسي الخاص ترتبط ، من خلال سيرورة أصاب ألف . آدلر الى أبعد حد إذ سماها « تشابك الدوافع الغريزية(٦) » ، بالنظارية SCOPTOPHILIE بشقيها الايجابي والسلبي(٧) . فالصبي الصغير يتحين الفرص لرؤية « فرفورة » الآخرين ، وفضوله الجنسي ينمو ويتطور ، ويحلو له في الوقت نفسه أن يري الآخرين « فرفورته » . وينطوي حلم من أحلامه ، يعود في تاريخه الى الآونة الأولى للكبت ، على رغبة في أن تساعده واحدة من صديقاته الصغيرات على الفرفرة ، أي أن تشارك في المشهد . وينم الحلم أيضاً عن أن هذه الرغبة ظلت قائمة الى ذلك الحين بدون أن تُكبت، كما أن معلومات لاحقة أكدت أن هانز اعتاد أن يشبع هذه الرغبة .

وسرعان ما ارتبط الشق الايجابي من النظارية عنده بدافع محدد . فحين اشتكى هانز مراراً وتكراراً لأبيه وأمه على حد سواء من أنه لم يرَ قط بعد «فرفورتهما»، فأرجح الظن أن دافعه الى ذلك كان الحاجة الى **المقارنة** . فالأنا هو على الدوام المعيار الذي به يقيس الفرد العالم ؛ وإنما عن طريق المقارنة الدائمة مع ذاته يبدأ بفهم العالم . وقد

---

(٦) انظر : **الغريزة العدوانية في الحياة وفي العصاب** ، في FORTSCHRITTE DER MEDIZIN ، ١٩٠٨ ، العدد ١٩ .

(٧) النظارية : الحب الجنسي للنظر ، ولها شكلان : ايجابي وهو التلصصية VOYEURISME اي حب النظر الى أعضاء الآخرين الجنسية ، وسلبي هو الاستعرائية EXHIBITIONNISME اي حب عرض الاعضاء التناسلية لأنظار الآخرين . «م» .

لاحظ هانز أن الحيوانات الكبيرة لها « فرفورات » أكبر نسبياً من « فرفورته » ؛ ولهذا افترض أن كذلك هو الأمر لدى والديه ، وتمنى لو يتحقق من ذلك . وقد تصور أن لأمه بكل تأكيد فرفورة « مثل الحصان » . ومن ثم تسلح بهذا العزاء الجاهز : ان « فرفورته » ستكبر معه . ويبدو أن رغبة الطفل في أن يكبر قد تركزت على عضوه التناسلي .

هكذا كانت المنطقة التناسلية في الجبلّة الجنسية لهانز الصغير هي من البداية، من بين المناطق الشهوية، التي توفر له أعظم اللذة. وكانت اللذة الوحيدة المشابهة التي تجلت عند هانز هي اللذة الاخراجية ، أي اللذة المرتبطة بالفتحتين اللتين يتم عن طريقهما إفراغ البول وإفراغ البراز . وحين يتصور هانز ، في تخييله الهنيء الأخير ، الذي بفضله تم التغلب على مرضه ، أن له أولاداً يأخذهم الى المرحاض ، ويجعلهم يفرفرون ويمسح لهم مؤخراتهم ، وبالاختصار يعمل معهم « كل ما يُعمل للأولاد » ، فإنه يبدو مستحيلاً أن نتحاشى الافتراض بأن هذه الممارسات كانت مصدر أحاسيس لاذّة له يوم كان طفلاً صغيراً يلقى من ذويه مثل هذه العناية . وقد استحصل من مناطقه الشهوية على هذه اللذة بمعونة الشخص الذي كان يتولى العناية به طفلاً ، أي في الواقع أمه ؛ ومن ثم فقد حددت هذه اللذة الطريق الى اختيار الموضوع . على أنه من المحتمل أن يكون اعتاد في زمن أبكر على تدبر هذه اللذة لنفسه وفق النمط الايروسي الذاتي ، فكان على هذا الأساس واحداً من أولئك الأطفال الذين يحلو لهم أن يمسكوا مفرزاتهم الى أن يوفر لهم إفراغها إثارة لاذّة . أنا أقول فقط إن ذلك ممكن ، لأن التحليل لم يجلُ الأمر على نحو قاطع . وما « الضجيج » الذي يحدثه بقدميه (الرفس) ، وهو ما صار فيما بعد يرعبه أشد الرعب ، إلا مؤشر في هذا الاتجاه . لكن مهما يكن من أمر ، فإن مصدري اللذة هذين لم يكن لهما لدى هانز تلك الأهمية الملفتة للنظر التي غالباً ما تلحظ لدى أطفال آخرين . فقد « نظف » هانز في وقت مبكر ، ولم يلعب لديه سلس البول ، الليلي أو

النهاري ، أي دور في سنواته الأولى . كما لم يُلحظ لديه قط ميل الى اللعب ببرازه ، وهو ميل منفر للغاية لدى الراشدين وكثيراً ما يعاود ظهوره في نهاية سيرورات الارتكاس النفسي .

ولننبه هنا للحال الى انه حدث في اثناء الرهاب كبت لا سبيل الى تجاهله لهذين المقوِّمين البالغي التطور من مقومات النشاط الجنسي ، إذ كان هانز يخجل من التبول أمام الآخرين ، ويتهم نفسه بأنه وضع يده على « فرفورته » ، ويجاهد للعزوف عن الأونانية ، ويبدي قرفاً من « اللومف » والبول ومن كل ما يمكن أن يذكره بهما . اما في التخييل الذي تصور فيه أنه يتعهد أولاده بالعناية فقد الغى هذا الكبت الاخير .

ان جبلَّة جنسية كجبلة صغيرنا هانز لا يبدو أنها تنطوي على استعداد لتمخض الانحرافات أو صورتها السالبة (ولنقتصر هنا على الهستيريا) . فبحسب ما أستدل من خبرتي (وينبغي هنا حقاً أن نتكلم بتحفظ بالغ) ، فإن الجبلة الفطرية للهستيريين تتميز بهيمنة أضعف للمنطقة التناسلية بالقياس الى المناطق الشهوية الأخرى . وهذا يكاد يكون بدهياً عند المنحرفين . إلا أن مظهراً بعينه من مظاهر « الشذوذ » في الحياة الجنسية ينبغي استثناؤه من هذه القاعدة . فلدى أولئك الذين سيصيرون في زمن لاحق من الجنسيين المثليين ـ والذين يكونون قد مروا جميعهم في طفولتهم بحسب توقعي كما بحسب ملاحظات ج . سادجر بمرحلة **مزدوجة التكوين**[8] ـ نلتقي هيمنة طفلية للمنطقة التناسلية ، وبخاصة القضيب ، مماثلة لما نلتقيه لدى الأسوياء . بل أكثر من ذلك : فالتقدير الكبير الذي يكنّه الجنسيون المثليون لعضو الذكورة هو ما يحدد في الواقع مصيرهم . فهم يختارون في طفولتهم المرأة موضوعاً جنسياً

(٨) او مرحلة امفيجينية AMPHIGENE : وهي مرحلة في النمو يكون فيها الافراد من كلا الجنسين بلا تمييز موضوعاً للرغبة الجنسية. «م» .

لهم ، ما داموا يعزون اليها امتلاك ذلك الجزء من الجسم الذي هو في نظرهم لا غنى عنه ؛ ومتى ما تولد لديهم الاقتناع بأن المرأة خيبت آمالهم بصدد هذه النقطة لا تعود المرأة مقبولة لديهم كموضوع جنسي . إنهم لا يستطيعون استغناء عن وجود القضيب لدى كل من يفترض فيه أن يستثيرهم الى الاتصال الجنسي ، ويثبِّتون ، في الحالة الأكثر مؤاتاة ، ليبيدوهم على « المرأة المجهزة بقضيب » ، أي على مراهق ذي مظهر انثوي . وهكذا فإن الجنسيين المثليين أشخاص لا يستطيعون ، بالنظر الى الأهمية الشهوية لعضو الذكورة عندهم ، أن يستغنوا عن أن يكون موضوع رغبتهم الجنسية موافقاً في مواصفاته لما عندهم . وهم في تقدمهم من الايروسية الذاتية الى الحب الموضوعاني لبثوا مثبتين عند نقطة وسيطة هي أدنى الى الأولى منها الى الثانية .

ليس من مبرر على الاطلاق للقول بغريزة جنسية مثلية خاصة . فما يجعل الشخص جنسياً مثلياً ليس خاصية معينة في حياته الغريزية ، وانما اختياره للموضوع . وسأحيل القارىء هنا الى ما أبنته في كتابي عن **نظرية الجنس**[9] من اننا توهمنا خطأ أن الاتحاد بين الغريزة والموضوع في الحياة الجنسية أوثق وأمتن مما هو عليه في الواقع . فالجنسي المثلي لا يتمكن من فصل غرائزه ـ وقد تكون سوية ـ عن صنف بعينه من المواضيع التي لا يقع اختياره عليها إلا لصفة خاصة تتصف بها . ونظراً الى أن هذه الصفة الخاصة تبدو له عمومية في الطفولة ، لذا يكون في وسعه أن يسلك مسلك صغيرنا هانز الذي كان يحب بغير ما تمييز الصبيان والبنات على حد سواء ، والذي صرح بالمناسبة أن صديقه فريتزل هو « أعز بنت لديه » . ان هانز جنسي مثلي ، كما قد يكون كذلك الأطفال جميعاً ، وهذا على الا تغيب عن نظرنا أبداً الحقيقة

(٩) يقصد : ثلاثة مباحث في نظرية الجنس . « م » .

التالية ، وهي أنه **لا يعرف غير ضرب واحد من العضو التناسلي** ، هو الذي مثل عضوه[10]..

غير أن النمو اللاحق لداعرنا الصغير لم يقده الى الجنسية المثلية ، وانما الى ذكورة عارمة ذات ميل الى تعدد الزوجات؛ فقد كان يعرف كيف يغير سلوكه بتغير المواضيع الأنثوية التي يميل اليها: فهو في حالة عدواني الى حد التهور، وفي أخرى دنف مسترخٍ . وكان حبه في باديء الأمر قد تحول من أمه الى مواضيع أخرى ، ولكن مع تنادر هذه المواضيع ارتد حب هانز نحو أمه وسقط عندها في العصاب . وعندئذ فحسب تجلى لنا مدى ما بلغه حبه لأمه من شدة ، وما التقلبات التي مر بها . وكان الهدف الجنسي الذي ينشده هانز لدى رفيقاته الصغيرات ، وهو **النوم** معهن ، قد نشأ عن علاقته بأمه ؛ وقد عبر عنه في عبارات كان يمكن أن تكون ملائمة على لسان راشد ، وان أخذت عند هذا الأخير معنى أكثر امتلاء .

وقد اهتدى الصبي الصغير الى طريق الحب الموضوعاني بالطريقة المألوفة : أي من خلال العناية التي تلقاها حين كان طفلاً صغيراً ؛ وصار ضرب جديد من المتعة عنده هو المتعة العظمى : أن ينام مع أمه . وسننوه هنا بأهمية لذة الملامسة الجلدية (وهي لذة مشاعة بيننا جميعاً بحكم جبلّتنا) باعتبارها واحداً من مقومات هذا الاشباع لدى هانز ـ على حين أننا لو أخذنا بمدونة المصطلحات التي يقترحها مول MOLL (وهي في رأينا مصطنعة) لكان علينا أن نرد هذا الاشباع الى تسكين **غريزة التلميس** .

يؤكد هانز ، بموقفه من أبيه وأمه ، على نحو باهر وملموس الى

(١٠) (ملحوظة اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ لفتُ الانتباه في وقت لاحق (١٩٢٣) إلى واقع ان مرحلة النمو الجنسي التي كان يمر بها مريضنا الصغير تتميز دوماً وأبداً بمعرفة نوع واحد من العضو التناسلي ، هو عضو الذكورة . وبالتعارض مع مرحلة النضج اللاحقة ، تتسم هذه المرحلة الاولى لا بزعامة تناسلية ، بل بزعامة فالوسية (الفالوس رمز القضيب . « م ») .

أقصى حد، صحة كل ما كنت ذكرته، في **تفسير الأحلام** وفي **نظرية الجنس** ، عن علاقات الأطفال بوالديهم . فهو بحق أوديب صغير ، يود لو « ينحي » أباه ويتخلص منه ، كيما ينفرد بمامته الجميلة وينام معها. وقد رأت هذه الأمنية النور في أثناء العطلة الصيفية ، حينما جذب تناوب حضور الأب وغيابه انتباه هانز إلى الشروط التي تتحكم بالصلة الحميمة بأمه، تلك الصلة التي طالما كان يحن إليها. وقد اكتفت الأمنية وقتئذ بهذه الصيغة : إن الأب لا بد أن « يرحل » ، وفي طور لاحق صار من الممكن لخوفه من أن يعضه حصان أبيض أن يرتبط ارتباطاً مباشراً بتلك الصورة الأولى للرغبة ، بفعل انطباع عارض استشعره لحظة رحيل شخص آخر . ولكن فيما بعد ـ وفي أرجح الظن قبل عودتهم الى فيينا حيث لم يعد في الامكان التعويل على الغيابات الأبوية ـ تضخمت الأمنية الى أن اتخذت صورة رغبة في أن يبقى الأب دائم الغياب ، أي في أن « يموت » . والخوف المنبعث من هذه الرغبة في موت الأب ، وهو الخوف الذي يمكن أن نقول إنه ناشيء على هذا النحو عن دافع سوي ، مثّل العقبة الكبرى في وجه التحليل ، الى أن أمكن تبديده في الحديث الذي دار في عيادتي[11] .

غير أن صغيرنا هانز لم يكن بحق وغداً ، ولا حتى طفلاً من أولئك الأطفال الذين تتفتح عندهم بحرية ، في ذلك الطور من العمر ، نزعات الطبيعة البشرية الى القسوة والعنف . بل على العكس من ذلك ، فقد كان في طبعه على درجة نادرة من الحنو والطيبة ؛ وقد روى أبوه أن تحول الميول العدوانية الى مشاعر شفقة قد تم لديه في سن مبكرة جداً . فقبل وقت طويل من إصابته بالرهاب ، كان يستشعر ضيقاً إذا ما رأى

(١١) من المؤكد ان فكرتي هانز المتداعيتين : « شراب التوت والبندقية التي تقتل » ، لم يكن لهما تعيين واحد . وأغلب الظن انهما ترتبطان بكراهية هانز لأبيه بقدر ما ترتبطان بعقدة الإمساك . وحتى الأب ، الذي حدس بهذه العلاقة ، ربط « شراب التوت » بفكرة الدم .

أحصنة مدينة الملاهي تضرب ، وما كان يستطيع أن يرى بغير انفعال أحداً يبكي في حضوره . صحيح أنه ، عند نقطة معينة من التحليل ، تتصل بسياق محدد ، برز عنده للنور جانب من ساديته المكبوحة[١٢] ، ولكنها كانت بالتحديد سادية مكبوحة ، ويبقى علينا الآن أن نكتشف ما السياق الذي ظهرت هذه السادية محله وماذا يفترض بها أن تمثله . وبالفعل ، كان هانز يكن حباً عميقاً للأب فيما كانت تعتمل في نفسه الرغبة في موته ، وبينما كان ذكاؤه لا يقبل بمثل هذا التناقض[١٣] ، كان هانز يكشف في الواقع عن وجوده حينما كان ينطح أباه ثم يسارع الى تقبيل الموضع الذي نطحه منه . ولزام علينا نحن انفسنا أن نحترز من استغراب وجود هذا التناقض ؛ فحياة البشر الوجدانية منسوجة ، بوجه عام ، من أمثال هذه الأزواج من المتناقضات[١٤] ؛ بل لو لم يكن الأمر كذلك فلربما لم يكن هناك لا كبت ولا عصاب . وبصفة عامة لا تغدو هذه الأزواج من المتناقضات الوجدانية شعورية لدى الراشدين ، بكلا جانبيها في آن معاً ، إلا في ذروة الهوى والعشق ؛ أما فيما عدا ذلك من الوقت فمن عادتها أن يكبح جانب منها الجانب الآخر ، الى أن يفلح أحدهما في الظهور على الآخر ومواراته . ولكن من الممكن لهما ، في حياة الطفل النفسية، أن يتعايشا جنباً الى جنب في سلام لفترة مديدة من الزمن.

لقد كان لميلاد أخت صغيرة أعظم الوقع على نمو هانز الجنسي ـ النفسي حين كان في الثالثة والنصف من العمر . فقد وثّق هذا الحدث صلاته بوالديه ، وحمله على التفكير بمشكلات لا حل لها ، ثم جاء مشهد العناية المبذولة للطفلة الصغيرة ليحيي الآثار الذاكرية للعهد الذي كان فيه هانز نفسه ينعم بهذه الملذات . وان تأثيراً كهذا لهو بدوره نمطي :

(١٢) حينما رغب في ان يضرب الاحصنة ويعاكسها .
(١٣) انظر السؤال المحرج الذي وجهه هانز الى أبيه ، ص ٥٠.
(١٤) إني لست في الحقيقة خرافة ملفقة، بل انا انسان بكل متناقضاته. ك. ف. ماير. **اكواخ الفردوس** .

ففي عدد يفوق كل توقع من تواريخ المرضى أو الأسوياء نجدنا مضطرين إلى أن نتخذ من مثل ذلك التفجر للرغبة والفضول الجنسيين، المرتبط ـ كما في الحالة التي نحن بصددها ـ بمولد أخ صغير أو أخت صغيرة، نقطة بداية لنا. ومسلك هانز ازاء الطارئة الجديدة هو عينه ما وصفته في **تفسير الأحلام**[١٥] . فبعد مضي أيام قلائل أفصح هانز ، وهو تحت وطأة الحمى ، عن ضآلة ترحيبه بالاضافة الجديدة الطارئة على الأسرة . وهنا كانت العدائية سباقة الى الظهور ، ثم تلتها المحبة[١٦] . ومنذئذ بات الخوف من قدوم طفل صغير آخر يحتل مكاناً بين أفكاره الشعورية . وفي العصاب تمثلت العدائية ، التي كان قد كبحها ، في خوف من نوع خاص : الخوف من المغطس ؛ وقد أفصح هانز في التحليل بلا مواربة عن رغبته في موت أخته ، ولم يقنع بتلميحات كان يتحتم على أبيه أن يتممها . ولم تتبدَّ هذه الرغبة له على ضوء نقده الذاتي آثمة كمثل الرغبة ، المشابهة في طبيعتها ، التي كان وجهها ضد أبيه ، ولكن من الواضح أن لاشعوره كان يعامل الشخصين كليهما معاملة متماثلة ، لأن كلّاً من أخته وأبيه كان ينتزع منه أمه ويحول دون انفراده بها .

أضف الى ذلك أن هذا الحدث ، والمشاعر التي أيقظها ، حددت لرغباته وجهة جديدة . ففي تخييله الأخير والمظفر جمع معاً صبواته الايروسية كافة ، سواء منها ما ينبع من المرحلة الايروسية الذاتية أو ما يتصل بحبه الموضوعاني . فبموجبه تزوج من أمه الجميلة ، وأنجب عدداً لا يحصى من الأولاد ، وصار بمستطاعه أن يعنى بهم على طريقته الخاصة .

- ٢ -

ذات يوم ، وفيما كان هانز في الطريق ، أخذته نوبة من الحصر

(١٥) **تفسير الاحلام** . الطبعة (الالمانية) السابعة ، ص ١٧٤ .
(١٦) انظر خطط هانز لما يريد فعله يوم ستتمكن أخته من الكلام (ص ٨٣) .

المرضي . ولم يكن في طاقته بعد أن يفصح عما هو منه خائف ، ولكنه شف بما قاله لأبيه ، في مستهل حالة القلق هذه ، عن دافعه الى أن يمرض ، أي عن مكسبه من المرض . فهو يريد أن يبقى لصق أمه ، ويرغب في أن « يتدلع » معها . ومن الممكن أن يكون تذكره بأنه كان أبعد عنها أيضاً حينما ولدت الطفلة الصغيرة قد أسهم ، على ما يعتقد أبوه ، في ابتعاث ذلك الحنين . وسرعان ما غدا واضحاً أن الحصر لم يعد قابلاً للتحويل من جديد الى الصبوة التي ناب منابها . فقد صار هانز يخاف حتى عندما تصحبه أمه . وفي أثناء ذلك أتيح لنا أن نعرف ، من خلال بعض القرائن ، ما ذا الذي تثبَّت عليه الليبيدو بعد أن انقلب الى حصر . فقد أبدى هانز عن خوف من نوع خاص تماماً من أن يعضه حصان أبيض .

انا نطلق على مثل هذه الحالة المرضية اسم « الرهاب » PHOBIE ، وكان يمكننا أن نصنف حالة هانز في عداد الآغورافوبيات[17] لولا أن الداء الأخير هذا يتسم بأن الانتقال في المكان ، الذي يبقى مستحيلاً بغير ذلك ، يغدو على الدوام ممكناً متى ما صحب المريض فيه شخص معين ، وفي الحالات القصوى الطبيب . ورهاب هانز لا يتوفر فيه هذا الشرط ، بل سرعان ما توقف عن أن تكون له صلة بالمكان ، واتخذ موضوعاً له بصورة متزايدة الوضوح الحصان ؛ ففي الآونة الأولى من الرهاب ، وفيما كان هانز في أوج قلقه ، عبر صغيرنا عن خوفه من أن « يدخل الحصان إلى الغرفة » . وهذا ما سهَّل علي للغاية فهم عصابه .

إن المكان الذي يمكن أن تخص به « الأرهبة » في تصنيف الأعصبة لم يتم الى الآن تعيينه بوضوح . ويبدو مؤكداً أننا لا نستطيع أن نرى فيها سوى تناذرات[18] يمكن أن ترجع الى أعصبة مختلفة، وأنه

(١٧) الأغورافوبيا : رهاب الخلاء او رهاب الأماكن المكشوفة . وتقابلها الكلوستروفوبيا ، اي رهاب الاماكن المغلقة . « م » .

(١٨) التناذرات جمع تناذر ترجمة دارجة طبياً SYNDROMES ، والتناذر جملة اعراض مرضية =

لا يتحتم علينا أن نصنفها في عداد الكيانات المرضية القائمة بذاتها . وفيما يتصل بالأرهبة التي من قبيل رهاب مريضنا الصغير ، وهي في الواقع أكثر الأرهبة شيوعاً ، فإن اسم « الهستيريا الحصرية » لا يبدو لي غير موائم . وقد اقترحت هذه التسمية على د . ف . شتيكل حين عكف على وصف حالات القلق العصابي ، وإني لآمل أن تلقى قبولاً فتدرج[19] . وما يبرر هذه التسمية التشابه في الإوالية النفسية بين هذه الأرهبة وبين الهستيريا ، وهو تشابه تام فيما عدا نقطة واحدة . على أن هذه النقطة هي في الحق فاصلة الأهمية ، وكافية لإجراء تمييز . ففي الهستيريا الحصرية ، فإن الليبيدو ، المنفصل عن المادة الإمراضية عن طريق الكبت ، لا **يتحول**[20] ، أي لا ينزاح من النفسي الى تعصيب بدني ، بل يتم إطلاقه في صورة حصر . وفي متاحنا أن نلتقي في الحالات السريرية بجميع صيغ التمازج بين هذه « الهستيريا الحصرية » و « الهستيريا التحولية » . وثمة حالات من الهستيريا التحولية الخالصة لا أثر فيها على الاطلاق للحصر ، كما أن ثمة حالات من الهستيريا الحصرية الخالصة ، تتبدى في مشاعر قلق وأرهبة، بدون أن ينضاف اليها أي تحول : وحالة صغيرنا هانز هي من هذا النوع .

ان الهستيريات الحصرية هي الأكثر شيوعاً بين الأمراض العصابية النفسية . ولكنها بوجه خاص أبكرها الى الظهور في الحياة : فهي في المقام الأول أعصبة الطفولة . فحينما تتحدث أم عن ابنها واصفة اياه بأنه « عصبي » ، فلنا أن نكون على ثقة في تسع حالات من عشر من

= متزامنة . وخاصة بمرض واحد . وقد درجت المدرسة المصرية على ترجمته بـ «زملة» جمع «زملات». «م».

(١٩) ف . شتيكل : **حالات الحصر العصبية وعلاجها** ، ١٩٠٨ .

(٢٠) التحول CONVERSION : إوالية تشكيل الاعراض في الهستيريا ، وتتميز بانزياح ما هو نفسي الى ما هو بدني ، ومن ثم تكون الاعراض التحويلية تعبيراً رمزياً ، عن طريق البدن ، عن تمثلات مكبوتة . «م» .

أن الطفل مصاب بأحد أشكال الحصر أو بعدة أشكال منه . ومن المؤسف أن الإوالية المرهفة لهذه الاضطرابات العظيمة الدلالة لم تدرس بعد دراسة كافية ؛ ولم يتقرر بعد الى الآن هل تنشأ الهستيريا الحصرية ، خلافاً للهستيريا التحولية ولأعصبة أخرى ، عن عوامل الجبلة وحدها أو عن الخبرات العارضة وحدها ، أو عن ائتلاف بين النوعين ما يزال مطلوباً تحديده[٢١] . ويبدو على كل حال أن هذا الاضطراب العصابي هو أقل نظائره حاجة الى جبلَّة خاصة ، ومن ثم يمكن اكتسابه بأعظم اليسر في أية مرحلة من مراحل الحياة .

يمكن لنا بسهولة أن نتبين خاصية أساسية من خواص الهستيريا الحصرية. فالهستيريا الحصرية تنزع طرداً مع تقدمها، الى الانقلاب الى « رهاب » ؛ وفي النهاية قد يتخلص المريض من كل حصره ، ولكن فقط لقاء ضروب شتى من الكف والتقييد يتعين عليه أن يخضع لها . وتنطوي الهستريا الحصرية من البداية على مجهود نفسي دائب يعمل على أن يقيد نفسياً من جديد الحصر الذي غدا طليقاً، غير أن هذا المجهود لا يستطيع أن يعيد تحويل الحصر الى ليبيدو ولا أن يقيد نفسه الى تلك العقد عينها التي منها ينبثق الليبيدو. ولا يبقى أمامه ما يفعله سوى أن يسد الطريق على كل مناسبة يمكن أن تؤدي الى تمخض الحصر، وهذا بإقامة حواجز نفسية: تحوطات، كفوف، تحظيرات. وهذه الأبنية الدفاعية هي التي تتبدى لنا في صورة أرهبة وتؤلف أمام أنظارنا ماهية المرض.

(٢١) (ملحوظة اضيفت سنة ١٩٢٢) ـ ان التقصي الذي اشرنا إلى ضرورته هنا لم يحظَ بمتابعة. ولكن ليس من سبب يدعونا إلى الافتراض بأن الهستيريا الحصرية تشذ عن القاعدة التي تنص على ان الاستعداد المسبق والخبرة يسهمان كليهما بالضرورة في اتيولوجيا العصاب . ويبدو أن وجهات نظر رانك بخصوص آثار رضة الميلاد تلقي ضوءاً خاصاً على الاستعداد المسبق للهستيريا الحصرية الذي يكون بالغ القوة في الطفولة (انظر مع ذلك نقد فرويد اللاحق لتصور رانك هذا في الفصل الثامن من كتابه **الكف والاعراض والحصر** . هامش الترجمة الفرنسية) .

يمكن القول إن علاج الهستيريا الحصرية كان الى الآن علاجاً سالباً تماماً. وقد دلت الخبرة أنه من المستحيل ، بل في بعض الحالات أنه من الخطر محاولة شفاء رهاب من الأرهبة بطرائق عنيفة ، أي بوضع المريض ، بعد تجريده من وسائله الدفاعية ، في موقف يضطر فيه الى أن يتحمل هجمة حصره المنطلق . وعلى هذا فإن أصحاب الشأن يتركون المريض ، وقد أعيتهم الحيلة ، يبحث عن ملجأ يلوذ به حيثما يعتقد أنه واجده ، ويبدون تجاهه عن ازدراء ، ليس من شأنه أن يعينه على الشفاء ، بسبب « جبنه اللامعقول » .

لقد قر قرار والدي مريضنا الصغير ، منذ مبتدأ مرضه ، على ألا يسخرا منه وعلى ألا يلجآ معه الى الغضب والعنف ، بل أن يحاولا النفاذ الى رغباته المكبوتة بطرق التحليل النفسي . وقد تكللت الجهود الخارقة للمألوف التي تجشمها الأب بالنجاح ، وسوف تتيح لنا تقاريره امكانية النفاذ الى نسيج هذا النوع من الرهاب وتتبع مسار تحليله .

* * *

من المحتمل أن يكون التحليل ، باستطراداته وتفاصيله ، قد غدا غامضاً بعض الشيء بالنسبة الى القارىء . وعليه سوف أبدأ بتقديم خلاصة مقتضبة عنه ، مستبعداً كل ما هو جانبي وغير مجدٍ ، ولافتاً الانتباه الى النتائج طرداً مع بروزها .

إن أول شيء نتبينه أن تفجر الحالة العصبية لم يكن على الاطلاق فجائياً على نحو ما بدا للوهلة الأولى . فقبل ذلك بأيام قليلة أفاق الطفل من كابوس كان مضمونه كالتالي :

لقد رحلت أمه ولم تعد له ماما « يتدلع » معها . ويشير هذا الحلم بحد ذاته الى وجود سيرورة كبت ذات شدة تبعث على القلق . ولا نستطيع تفسير هذا الكابوس ، كما نفعل مع العديد من أحلام الحصر الأخرى ، بافتراضنا أن الطفل ساوره في حلمه حصر ذو أصل بدني وأن هذا الحصر جرى استخدامه عندئذ لتحقيق رغبة لاشعورية كانت

ستبقى لولا ذلك أسيرة كبت شديد[٢٢] ؛ فما يواجهنا هنا انما هو حلم حقيقي من أحلام العقاب والكبت ، انتفت فيه أيضاً وظيفة الحلم ، وذلك لأن الطفل استيقظ وهو محصور . وبوسعنا في يسر أن نعيد بناء ما حدث في اللاشعور . فقد كان الطفل يحلم بمداعبات أمه ، ويحلم بأنه نائم معها ، لكن اللذة كلها انقلبت حصراً ، كما انقلب كل تمثل من التمثلات الى نقيضه . فالكبت أحرز النصر على إوالية الحلم .

على ان البدايات الاولى لهذا الموقف السيكولوجي تعود الى ما قبل ذلك أيضاً . فقد كانت اعترت هانز خلال الصيف السابق حالات نفسية مشابهة هي مزيج من الرغبة المضطرمة والحصر، وكان أفصح في أثنائها عن أمور مشابهة ، وقد عادت عليه يومئذ بفائدة : فقد أخذته أمه معها الى فراشها . وبوسعنا ان نفترض ان هانز غدا منذئذ في حالة من التهيج الجنسي الشديد الذي كانت الأم موضوعاً له . وقد تجلت شدة هذا التهيج في محاولتين قام بهما هانز لإغراء أمه (حدثت الثانية قبيل تفجر الحصر) ، وقد وجد هذا التهيج الشديد طريقه الى الاشباع الجزئي كل مساء بالأسلوب الاستمنائي . أما كيف تم تحول هذا التهيج فجأة الى حصر ، أتلقائياً أم على أثر رفض الام لعروض هانز ام أيضاً من جراء الاستيقاظ الطارىء لانطباعات سابقة كنتيجة لـ « السبب المباشر » الذي تمثل بمرضه (وهو ما سنتعرف اليه عما قليل) ، فهذا ما لا نملك ان نبت فيه ، وهو في الواقع غير مهم ، نظراً الى ان هذه الاحتمالات الثلاثة لا يمكن اعتبارها متنافية . وتبقى الحقيقة الواقعة ، وهي التحول الفجائي لتهيجه الجنسي الى حصر .

سبق لنا وصف سلوك الطفل في الأونة الاولى لحصره ، وكذلك وصف المضمون الاول الذي نسبه الى هذا الحصر : ان **حصاناً** يهم بأن يعضه . وهنا حدثت أول مداخلة علاجية . فوالدا هانز قالا له ان الحصر

(٢٢) انظر تفسير الاحلام ، الطبعة السابعة ، ص ٤٣٣ .

هو نتيجة الاستمناء وحثّاه على الاقلاع عن هذه العادة . وقد أوصيت والدي هانز بأن يلحا أشد الالحاح ، في حديثهما معه ، على محبته لأمه ، هذه المحبة التي سعى الى أن يحل محلها خوفه من الاحصنـة . وتمخضت هذه المداخلة الاولى عن تحسن طفيف ، غير أن هذه الاشبار القليلة من الارض التي تم كسبها سرعان ما ضاعت من جديد في غمرة مرض بدني . وبقيت حالة هانز بلا تغير . وبعيد ذلك بقليل ربط هانز خوفه من ان يعضه حصان بذكرى انطباع تلقاه في غموندن . فقد كان أب قال لطفلته في غموندن وهي على وشك الرحيل : « لا تضعي اصابعك على الحصان وإلا عضك » ؛ والكلمات التي استخدمها هانز في روايته لهذا التحذير الصادر عن الاب تشابه الكلمات التي حُظر عليه بها الاستمناء . وهكذا بدا للوهلة الاولى أن والدي هانز كانا على حق إذ افترضا أن ما يخافه هو إشباعه الاستمنائي بالذات . غير أن العلاقة في جملتها ما يزال يلفها الإبهام ، ويبدو ان الحصان ما اضطلع بدور « الفزاعة » الا من قبيل المصادفة .

لقد كنت أعربت عن الفرض التالي ، وهو ان رغبة هانز المكبوتة يُحتمل جداً أن تكون الآن رغبته في رؤية «فرفورة» أمه مهما كلف الأمر. وبما ان سلوكه ازاء خادمة قدمت الى البيت حديثاً جاء متفقاً مع هذا الفرض ، فقد زوده أبوه بالايضاح الاول ، وهو ان النساء لا فرفورة لهن . وقد استجاب هانز لهذه المحاولة الاولى لمساعدته بأن روى أنه رأى أمه في تخييل له وهي تعرض « فرفورتها »[٢٣] . وهذا التخييـل ، وملاحظة ادلى بها هانز في حوار معه ، وفحواها ان فرفورته « ثابتة » ، يتيحان لنا ان نلقي نظرة أولى على السيرورات الذهنية اللاشعورية عند المريض . فقد كان واقعاً حقاً ، وإن بعد تأخير ، تحت تأثير التهديد

(٢٣) وبحسب السياق يجدر بنا ان نضيف : « وتلمسها » (ص ٣٨) . فهو نفسه لا يستطيع بالفعل ان يعرض فرفورته بدون ان يلمسها .

بالخصاء الذي كانت أمه وجهته اليه قبل نحو خمسة عشر شهراً. ذلك ان تخيله أن أمه تفعل نفس ما يفعله هو (تعبير الاطفال الشهير: « وانت ايضاً » حين يوضعون موضع اتهام) كان يقوم له مقام التبرير الذاتي؛ وعلى هذا كان تخييل حماية ودفاع. على أنه لزام علينا ان نأخذ في اعتبارنا ان والدي هانز هما اللذان استخلصا من المادة الإمراضية التي كانت تفعل فعلها فيه الفكرة الخاصة المتعلقة باهتمامه بـ « الفرفورات ». وقد اقتفى أثرهما في هذا الطريق، ولكنه لم يطرق بعد أرض التحليل بقدم مستقلة. ولم يكن من الممكن بعد ملاحظة أي نجع علاجي. فالتحليل قد شط بعيداً عن الاحصنة، وما تلقاه هانز من تبصير بأن النساء لا « فرفورة » لهن كان من شأنه بالاحرى، بحكم مضمونه، ان يزيد من حرصه على صون « فرفورته ».

ومع ذلك فليس النجاح العلاجي هو ما نصبو اليه باديء ذي بدء، وانما بغيتنا أن نضع المريض في وضع يقتدر معه على ان يعي شعورياً رغباته اللاشعورية. واننا لنتوصل الى ذلك اذا ما استخدمنا ما يمدنا به من قرائن ومؤشرات لنقدم لشعوره، بفضل فننا في التأويل، عقدته اللاشعورية **في عبارات من عندياتنا**. وسوف يكون ثمة قدر من التشابه بين ما يسمعه منا وبين ما يبحث عنه وما ينزع، بالرغم من المقاومات جميعاً، الى ان يشق لنفسه طريقاً الى الشعور؛ وهذا التشابه هو الذي يهيىء للمريض الفرصة لتعرّف المادة اللاشعورية. ان الطبيب يسبقه في طريق الفهم، بينما يتبع المريض، وان متأخراً بعض الشيء، طريقه الخاص به، الى ان يلتقي الاثنان عند الهدف المحدد. ومن عادة المحللين المبتدئين ان يخلطوا بين هذين العاملين، فيدخل في روعهم ان اللحظة التي تتكشف لهم فيها إحدى عقد المريض اللاشعورية هي أيضاً اللحظة التي يكون فيها المريض قد وعاها بدوره. وهم يتوقعون اكثر مما ينبغي لهم توقعه من مكاشفتهم مريضهم بكشفهم، إذ يتخيلون أنهم مستطيعون بذلك شفاءه: والحق أن المريض لا يستطيع ان يفيد من

المعرفة التي يقدمونها له إلا بوصفها معونة تساعده على تعرف العقدة اللاشعورية الكامنة في اعماق لاشعوره، **وبالتحديد حيث هي راسية**.

وان نجاحاً أولياً من هذا القبيل هو ما حصلنا عليه الآن عند هانز. فقد بات الآن مقتدراً، بعد ان سيطر جزئياً على عقدة خصائه، على الإفضاء الينا برغباته التي تدور حول أمه، وهو يفعل ذلك في صورة ما تزال مشوبة بالتحريف بوساطة **تخييل الزرافتين** اللتين راحت إحداهما تصيح في غير طائل لأن هانز امتلك الاخرى. وقد عبر هانز تعبيراً تشكيلياً عن واقعة « الامتلاك » بواقعة « الجلوس على ». وقد تعرف الأب في هذا التخييل صورة مكررة لمشهد كان يجري صباحاً في غرفة النوم بين الطفل ووالديه، وبادر الى تجريد الرغبة الخبيئة من الثوب الذي كانت ما تزال تتنكر فيه. فالزرافتان هما ابو هانز وأمه. وان يكن الاختيار، في هذا التخييل، قد وقع على الزراف لتنكير الرغبة، فقد كان ذلك متعيناً الى حد كبير بالزيارة التي قام بها هانز لتلك الحيوانات الكبيرة قبل بضعة ايام في حديقة شونبرون، وبالرسم الذي رسمه هانز للزرافة والذي احتفظ به أبوه، وربما أيضاً بمقارنة لاشعورية ذات صلة بعنق الزرافة الطويل والجامد(٢٤). ونلاحظ هنا ان الزرافة بوصفها حيواناً كبير الحجم ومثيراً للاهتمام بحكم « فرفورتها »، كان يمكن ان تدخل في منافسة مع الاحصنة في دور « الفزاعة ». وفضلاً عن ذلك فإن كون أبيه وأمه كليهما تمثلا له في صورة زرافتين ينهض قرينة تمهيدية لم تتم الافادة منها بعد في تأويل « أحصنة الحصر ».

أعقب قصة الزراف مباشرة تخييلان مقتضبان لهانز: ففي أحدهما دخل عنوة إلى مكان ممنوع في شونبرون، وفي ثانيهما حطم نافذة عربة القطار في شتاتبان؛ وفي التخييلين كليهما يبرز بجلاء طابع الذنب في الفعل، ويتبدى الأب كأنه شريك متواطىء. ومن سوء الحظ أن والد

(٢٤) وقد يتفق مع ذلك الاعجاب الذي ابداه هانز لاحقاً بعنق ابيه.

هانز لم يتمكن من تأويل هذين التخييلين ؛ ومن ثم لم يجنِ هانز فائدة من سردهما عليه . بيد ان ما بقي على هذا النحو غير مفهوم يعاود دائماً ظهوره في التحليل ، وكأنه روح هائمة ، الى ان يتم العثور على الحل والفوز بالخلاص .

ان فهم التخييلين « الاجراميين » لا يصطدم عندنا بأية عقبة . فهما جزء من عقدة امتلاك الام . فثمة تصور مبهم بزغ في نفس الطفل عن شيء يمكنه فعله مع الام ، وبه يكتمل امتلاكه لها : ويلجأ هانز ، للتعبير عما لا يستطيع إمساكاً به، الى تمثّلات مشخصة معينة، سمتها المشتركة العنف والممنوع ، ومضمونها يبدو لنا متفقاً الى حد مدهش مع الحقيقة الخفية . وعلينا ان نعتبر هذه التمثلات تخييلات رمزيـة للجماع ، وليس من قبيل التفاصيل العديمة الشأن أن يمثّل ابوه فيها باعتباره شريكاً . فلكأن هانز يقصد ان يقول : « بودي ان افعل شيئاً مع ماما ، شيئاً ممنوعاً ، لست ادري بالضبط ما هو ، لكني أعرف انك انت الآخر تفعله » .

لقد عزز تخييل الزراف لدي الاقتناع الذي كان تولد في ذهني حين عبر هانز عما بنفسه على النحو التالي : « إن الحصان سيدخل الى الغرفة » ، وقد وجدت الفرصة موائمة لتبصيره بأن خوفه انما هو من أبيه لما يضمره في نفسه له من غيرة وعداء ـ وكان من الضروري المصادرة على ذلك باعتباره جزءاً من وجداناته اللاشعورية . وبذلك اكون قد فسرت له جزئياً خوفه من الاحصنة : فالحصان لا بد ان يكون أباه ، وقد كانت لديه أسباب داخلية وجيهة ليخشى هذا الأب . وقد تهيأ لي ان بعض التفاصيل التي كانت تخيف هانز ، كالسواد حول افواه الاحصنة والشيء الذي أمام عيونها (شارب الأب وعويناته ، وهي من محمولات الراشد) ، قد انزاحت مباشرة من الأب الى الحصان .

لقد خلصتنا هذه الشروح من انجع المقاومات التي كانت تحول دون وعي هانز للمادة اللاشعورية ، وكان ابوه في الواقع هو الذي

يضطلع بدور المحلل . وبما ان ذروة الحالة قد تم آنئذ تخطيها ، فقد تدفقت المادة هنا فياضة ، واجترأ المريض الصغير على سرد تفاصيل رهابه ، ولم يلبث أن تدخل بصورة مستقلة في تحليله الخاص(٢٥) .

وها نحننذا نعلم الآن فقط من أي المواضيع ومن أي الانطباعات والخبرات يخاف هانز . فلم يكن يخاف فقط من الاحصنة ومن عضة الاحصنة ـ وسرعان ما توقف عن الكلام عن ذلك ـ بل كذلك من العربات ، ومن عربات نقل الاثاث والاومنيباسات (والسمة المشتركة ، كما سنرى عما قليل ، هي أنها محملة تحميلاً ثقيلاً) ، ومن الاحصنة التي تبدأ بالتحرك ، ومن الاحصنة الكبيرة والثقيلة ، ومن الاحصنة التي تسرع في عدوها . وقد شرح هانز بنفسه ما تعنيه هذه التعيينات : فهو يخاف من أن **تقع** الاحصنة ، ويضمِّن رهابه كل ما يبدو أن من شأنه ان يسهل وقوع الاحصنة .

وليس من النادر ألا يتوصل المحلل الى معرفة المضمون الدقيق لرهاب ما، أو الصيغة اللفظية لحفزة وسواسية، إلا بعد ان يقطع شوطاً معلوماً من العمل التحليلي النفسي. فالكبت لم يطل فقط العقد اللاشعورية ، بل استمر يتصدى لفسائلها ايضاً ، ويحول بين المريض وبين ان يعي حتى منتجاته المرضية . وهنا يجـد المحلل نفسه في موقف غريب ـ نادراً ما يواجهه الطبيب ـ يلزمه بالعمل على مساعدة المرض ولفت الانتباه لصالحه. غير أن اولئك الذين يجهلون جهلاً مطبقاً طبيعة التحليل النفسي هم وحدهم الذين يقدمون في الاهمية هذه المرحلة من العلاج على ما عداها ويستنتجون أنه لزام علينا ان نتوقع ان ينال منها

(٢٥) حتى في التحاليل التي يكون فيها المحلل والمريض غريبين واحدهما عن الآخر ، يلعب الخوف من الاب دوراً من اهم الادوار كمقاومة ضد اعادة انتاج المادة الامراضية اللاشعورية. فالمقاومات، من جهة اولى، لها طبيعة القصد والباعث: ومن جهة اخرى . وكما في هذا المثال ، يكون جزء من المادة اللاشعورية قادراً ، بحكم **مضمونه** بالذات ، على ان يفيد في الحؤول دون اعادة انتاج جزء آخر من هذه المادة عينها .

المريض أذى . أما حقيقة الأمر فهي أنه لا بد أولاً من الامساك باللص قبل شنقه ، وأنه لا بد لنا من ان نتجشم عناء البدء بالامساك بالتشكيلات المرضية قبل ان نتطلع الى القضاء عليها .

لقد سبق لي ان ذكرت ، في التعليقات التي ارفقت بها تاريخ المريض ، أنه من المفيد جداً ان نتعمق على هذا النحو في تفاصيل الرهاب ، ليتولد لدينا من ثم اقتناع اكيد بثانوية العلاقة التي تقام بين الحصر ومواضيعه . ولهذا تكون الارهبة غير محددة المجال الى حد يبعث على العجب، ومحددة الشروط بإحكام بالغ. ومن الواضح ان هانز اقتبس معطيات الاشكال الجديدة التي تلبسها رهابه من الانطباعات التي كانت تعرض لناظريه يومياً بحكم موقع بيته في مواجهة محطة الجمارك المركزية . وفضلاً عن ذلك كشف هانز ، في هذا السياق الجديد ، عن صبوة ـ وان كفها الحصر ـ الى ان يلعب بحمولة العربات ، من طرود وبراميل وصناديق ، كما يفعل صبية الشوارع .

عند هذه المرحلة من التحليل استعاد هانز ذكرى ذلك الحدث ، العديم الاهمية بحد ذاته ، الذي سبق مباشرة تفجر المرض والذي يمكن أن يعد بحق السبب الطارىء لهذا التفجر . فقد كان خرج في نزهة مع أمه ، فرأى حصان اومنيباس يقع ويرفس بأقدامه في كل اتجاه . وكان لذلك وقع عظيم على هانز . تملكه الذعر وتوهم ان الحصان مات ؛ وفي ذلك اليوم تحديداً ترسخ لديه الاعتقاد بأن الاحصنة جميعها ستقع . وقد لفت أبوه انتباهه الى أنه حين رأى الحصان يقع فلا بد ان يكون الفكر قد ذهب به اليه هو ، أي الى أبيه ، وأن يكون قد تمنى لو ان أباه يقع على هذا النحو ويموت . ولم ينكر هانز هذا التأويل . وبعيد ذلك بقليل بدأ يلعب لعبة قوامها ان يعض أباه ، كاشفاً بذلك عن تقبله لمماهاة أبيه بالحصان الذي كان يخافه. وابتداء من ذلك اليوم صار سلوكه تجاه أبيه طليقاً وبلا خوف ، بل لا يخلو من شيء من القحة . ومع ذلك فإن خوفه من الاحصنة ظل مستمراً ، ونحن لم نتبين بجلاء بعد ما

هي سلسلة التداعيات التي ابتعث من خلالها الحصان الواقع رغبات هانز اللاشعورية .

لنلخص ما عرفناه حتى الآن . فوراء الخوف الذي أفصح عنه هانز في بادىء الأمر ، أعني خوفه من ان يعضه حصان ، نكتشف خوفاً اعمق غوراً من ان تقع الأحصنة ؛ والحصانان كلاهما ، ذاك الذي يعض وذاك الذي يقع، هما الأب الذي سيعاقب هانز على ما يرعاه من رغبات شريرة ضده . وخلال هذه الفترة ابتعد التحليل عن الام .

وعلى غير توقع منا ، وبالتأكيد دونما تدخل من جانب أبيه على الاطلاق ، بدأ هانز يشغل نفسه الآن بـ « عقدة اللومف » ويبدي قرفه من جميع الأشياء التي تذكره بالإفراغ المعوي . بيد أن ابا هانز ، غير المتهيىء للمضي معه في هذا الطريق الجديد ، تابع عنوة التحليل في الوجهة التي كان يريد المضي فيها ، فحمل هانز على أن يتذكر حادثة وقعت في غموندن ، وكان انطباعه عنها يكمن وراء انطباعه عن حصان الاومنيباس الذي وقع . ذلك أن فريتزل ، رفيق اللعب الذي كان هانز يحبه كثيراً، وربما أيضاً منافسه لدى رفيقاتهما الصغيرات العديدات، كان قد ارتطم بحجر في قدمه ، وهو يلعب لعبة الحصان ، فوقع أرضاً وسال الدم من قدمه . وحينما وقع حصان الاومنيباس ذكر هانز بتلك الحادثة . ويجدر بنا ان نلاحظ ان هانز ، الذي كان مشغولاً عندئذ بمسائل اخرى ، بدأ ينكر أن يكون فريتزل قد وقع ، مع أن هذه الحادثة هي التي ربطت بين المشهدين . ولم يسلم بذلك الا في طور لاحق من التحليل . غير أن ما هو بالغ الاهمية بالنسبة الينا ان نلاحظ كيف ان تحول الليبيدو الى حصر قد تم إسقاطه على الموضوع الرئيسي لرهابه أي الحصان . كانت الاحصنة هي اكثر الحيوانات الكبيرة استئثاراً باهتمام هانز ؛ وكانت لعبة الحصان لعبته المفضلة مع رفاقه الصغار . وقد اشتبهت ـ وهذا ما اكده لي ابو هانز حين استقصيت عن الأمر منه ـ في أن الاب كان أول من قام للابن بدور « الحصان » ، وهذا ما اتاح

لشخص فريتزل ان ينوب مناب شخص الأب عند وقوع حادثة غموندن.
وقد كان من المحتم ، بعد ما تسبب الكبت في قلب الوجدانات ، أن يستبد بهانز الخوف من الاحصنة بعد ما كان ، فيما سبق ، يجد متعة جلى في الاحصنة .

لقد أسلفنا القول إنه بفضل تدخل والد هانز تم الوصول الى ذلك الكشف الهام المتصل بفاعلية السبب المباشر المولد للمرض . فقد استمر هانز مستغرقاً في اهتماماته « اللومفية » ، وعلينا الآن ان نتبعه في هذا الطريق . وهنا نعلم ان هانز كان من عادته فيما مضى ان يلح ليصاحب أمه الى المرحاض ، وأنه حينما نابت صديقته برتا مناب أمه عنده جدّد معها هذا التكتيك الى ان انكشف الأمر فحظر عليه فعل ذلك. وإن اللذة التي يستشعرها المرء وهو يراقب شخصاً محبوباً يقضي حاجته الطبيعية لهي ، مرة اخرى ، عبارة عن « تشابك غرائز » ، وقد كنا لاحظنا مثالاً على هذا التشابك لدى هانز . وفي النهاية تهيأ الأب لمواجهة رمزية « اللومف » أيضاً وانتبه لما هنالك من تشابه بين عربة محملة تحميلاً ثقيلاً وبين جسم محمل بالبراز ، وكذلك بين الطريقة التي تخرج بها عربة من بوابة وبين الطريقة التي يخرج بها البراز من البدن ، الخ .

غير ان موقف هانز من التحليل كان قد تبدل تبدلاً اساسياً بالمقارنة مع الاطوار السابقة . ففي السابق كان في مستطاع الاب ان يعلمه سلفاً بما سيظهر ، بينما كان هانز يخب في إثره متبعاً الاقوال الابوية ؛ أما الآن فإن هانز هو الذي يمضي الى الامام بخطى واثقة ، بينما يلقى الأب عناء في متابعته . فقد ابتدع هانز ، بدون وساطة أحد ، تخييلاً جديداً : فصانع الاقفال او السنكري فك المغطس الذي كان هانز في داخله وضربه في بطنه بمثقبه الكبير . وابتداء من هذه اللحظة صارت المادة التي تبزغ تتجاوز من كل صوب فهمنا المباشر . ولن نستطيع إلا في طور لاحق ان نفهم انها عبارة عن **تخييل انجاب** حرّفه الحصر . فالمغطس الكبير ، الذي كان هانز يجلس داخله في الماء ، هو جسم الأم ؛

و « المثقب » BOHRER ، الذي تعرف فيه الأب من البداية قضيباً كبيراً ، ما جاء ذكره إلا لارتباطه بـ« الميلاد » GEBOREN . والتأويل الذي سنجدنا مضطرين الى ان نعطيه لهذا التخييل سيبدو بطبيعة الحال غريباً للغاية : « بقضيبك الكبير ثقبتني = استولدتني ووضعتني في بطن أمي ». لكن التخييل افلت لحظتئذ من التأويل ، فما أفاد هانز إلا كحلقة في سلسلة أتاحت له أن يواصل الافصاح عما يبغي الافصاح عنه .

ان هانز خائف من ان تحممه أمه في المغطس الكبير ، وقد كان هذا القلق من جديد قلقاً مزيجاً . ان جزءاً منه لا يزال يستعصي على فهمنا ، اما جزؤه الآخر فمن الممكن تفسيره دفعة واحدة بالارتباط مع حمام أخته الصغيرة . فقد أقر هانز بأنه تمنى لو أن أمه ، وهي تحمم الطفلة الصغيرة ، تدعها تسقط في الماء بحيث تموت . وكان خوف هانز في اثناء تحميمه، وبحكم رغبته الشريرة تلك، خوفاً من الثأر، خوفاً من أن تكون عقوبته إغراقه بدوره . وقد تخلى هانز الآن عن موضوعة « اللومف » وانتقل حالاً الى موضوعة اخته الصغيرة . لكن من المفروض فينا أن نرهص بما يعنيه هذا التجاور بين الموضوعتين : فآنا الصغيرة هي نفسها « لومف » ، والاطفال جميعاً « لومفات » ويولدون كـ « لومفات».

وبوسعنا الآن ان نفهم عليه : فجميع عربات نقل الاثاث ، وجميع الاومنيباسات ، وجميع عربات الشحن ، ما هي إلا عربات « لقالق » ولا تثير اهتمام هانز إلا كتمثيلات رمزية للحبل . وما كان يستطيع ، حينما كان حصان ثقيل أو محمل تحميلاً ثقيلاً يقع ، أن يرى في ذلك سوى عملية إنجاب أو « مجيء الى أسفل » (NIEDERKOMMEN)[٢٦] . وعلى هذا لم يكن الحصان الذي يقع هو الاب الذي يموت فحسب ، بل كذلك الام التي تلد .

هنا تحديداً يجابهنا هانز بمفاجأة لم نكن مستعدين لها اطلاقاً .

(٢٦) انظر هامش ص ١١٠. «م» .

فقد كان لاحظ جيداً حمل أمه الذي انتهى ، كما هو متوقع ، بميلاد اخته الصغيرة ، وذلك عندما كان في الثالثة والنصف من العمر . وقد تمكن هانز من ان يعيد في ذهنه ، بعد الولادة على الاقل ، بناء حقيقة ما حدث ، بدون ان يكاشف أحداً ـ هذا صحيح ـ بذلك، بل ربما بدون أن يكون قادراً على التعبير عنه . وكل ما امكن الانتباه له آنئذ أن هانز اتخذ ، بعد الولادة ، موقفاً مفرطاً في تشككه تجاه كل ما من شأنه ان يشير الى وجود اللقلق. **أما ان هانز ـ بالتعارض التام مع اقواله الرسمية ـ كان يعرف في لاشعوره من اين جاءت الطفلة واين كانت قبل ذلك**، فهذا ما أثبته التحليل على نحو لا يرقى اليه الشك ، وربما كان أثبت نقاطه وأشدها امتناعاً على النقد .

ان الدليل القاطع على ذلك يقدمه لنا التخييل الذي تشبث به هانز بأشد العناء وزينه بكل تلك التفاصيل الثرية ، والذي أكّد بموجبه أن آنا كانت معهم في غموندن في الصيف الذي سبق ميلادها ، ووصف كيف سافرت الى هناك معهم ، وكم فعلت آنئذ من أشياء ما كانت تستطيع ان تفعلها حتى بعد عام من ولادتها . والصفاقة التي روى بها هانز هذا التخييل ، والاكاذيب العجيبة الكثيرة التي مزجها به والتي لم تكن بحال قابلة للتصديق ، كل ذلك كان بهدف الانتقام من أبيه الذي حمل له الضغينة على خداعه إياه بخرافة اللقلق . كان الأمر تماماً وكأنه يقصد ان يقول : « لئن اعتقدت حقاً أنني غبي الى الحد الذي أصدق معه أن اللقلق هو الذي أتى بآنا ، ففي مستطاعي والحال هذه ان اطالبك بأن تحمل اختلاقاتي على محمل الحقيقة ». وانما بالارتباط الواضح مع هذا الفعل الانتقامي للباحث الصغير ضد أبيه جاء تخييل الاحصنة التي يعاكسها هانز ويضربها . ويتألف هذا التخييل بدوره من عنصرين مكوِّنين : فالاساس الذي قام عليه ، من جهة اولى ، هو معاكسة هانز الفعلية لأبيه قبل ذلك مباشرة ، وفيه تصوير ، من الجهة الثانية ، لتلك الرغبات السادية المبهمة المتجهة ضد أمه والتي سبق له أن عبر عنها في

تخييليه اللذين أتى فيهما أموراً ممنوعة ، وان لم نفهمهما في أول الأمر . بل إن هانز أقر عن وعي برغبته في أن يضرب أمه .

لن تواجهنا من الآن فصاعداً ألغاز كثيرة . فهناك تخييل مبهم عن فوات قطار ، يبدو أنه كان مقدمة للفكرة اللاحقة التي ستساور هانز : أن يسلم اباه لجدته في لاينز ، إذ يأتي ذكر في هذا التخييل لرحلة الى لاينز وتظهر فيه الجدة . وفي تخييل آخر يعطي صبي صغير ٥٠٠٠٠ فلوران للسائق كيما يسمح له بالسفر في عربة القطار ؛ ويكاد هذا التخييل يبدو وكأنه خطة لشراء الأم من الأب الذي كانت قوته تكمن بالفعل ، والى حد ما ، في ثرائه . وفي تلك اللحظة اعترف هانز ، بصراحة لم يجرؤ قط على إبدائها سابقاً ، بالرغبة في التخلص من ابيه وبعلة هذه الرغبة : لأن أباه يعكر عليه صفو خلوته بأمه . وليس لنا أن ندهش ان رأينا الرغبات نفسها تعاود ظهورها تكراراً في اثناء التحليل ، فالرتابة لا تتأتى إلا من التأويلات التي تُؤول بها . اما بالنسبة الى هانز فهي ليست مجرد تكرارات ، وانما خطى في تقدم تواصل في الطريق الذي يقود من التلميح الوجل الى الرؤية الواضحة ، الواعية بملء معنى الكلمة ، والخالية من كل تحريف .

وما سيأتي بعد ذلك لن يكون إلا توكيداً من جانب هانز للنتائج التحليلية التي توصلنا اليها بفضل تأويلاتنا . فمن خلال فعل أعراضي يعلو على أي لبس أو شبهة ، وان يكن قد موهه قليلاً على الخادمة ولكن ليس إطلاقاً على أبيه ، أبان هانز عن الكيفية التي يتصور بها عملية الولادة . ولكن لو امعنا النظر في هذا الفعل الاعراضي لوجدنا ان هانز يفصح فيه عن اكثر من ذلك ، فيلمح الى شيء لن يرد له ذكر بعد ذلك في التحليل . فقد أدخل في ثقب مستدير في جسم دمية من المطاط مدية صغيرة كانت لأمه ، ثم استخرجها من بين ساقي الدمية باحداثه مزقاً ما بينهما . وبذلك تكون الايضاحات التي قدمها والدا هانز له إثر ذلك مباشرة ، والتي أفاداه بموجبها أن الأطفال

ينمون في الواقع داخل جسم امهاتهم ثم يُدفعون الى الخارج مثل **اللومف** ، قد جاءت متأخرة عن أوانها : فلم يكن في وسعها أن تفيد هانز شيئاً جديداً . وثمة فعل أعراضي آخر ، كان عارضاً في ظاهره ، حدث بعد ذلك بقليل انطوى على اعتراف بأن هانز رغب في موت والده ؛ إذ فيما كان أبوه يحدثه عن رغبة الموت هذا ، ترك هانز حصاناً صغيراً كان يلعب به يسقط ، أي رماه ارضاً . وقد أكد هانز أيضاً ، بكثير مما كان يتفوه به ، صحة الفرض الذي مؤداه ان العربات المحملة تحميلاً ثقيلاً تمثل في نظره حبل أمه ، وان سقوط الحصان يمثل الولادة . لكن أروع تأكيد لكل ما تقدم ، أعني البرهان على ان الاطفال كانوا في نظره **لومفات**، يقدمه لنا ابتداعه لاسم « لودي » واطلاقه اياه على طفله الاثير . غير ان هذه الواقعة لم تبلغ علمنا إلا متأخرة ، إذ اتضح لنا ان هانز كان يلعب منذ زمن بعيد بهذا « الطفل ـ النقانق »[(٢٧)] .

لقد درسنا من قبل تخييلي هانز الاخيرين اللذين بهما اكتمل شفاؤه . اولهما ، وهو تخييل السنكري الذي زوده بـ « فـرفورة » جديدة ، واكبر كما حدس أبوه ، لم يكن مجرد تكرار للتخييل السابق الذي موضوعه السنكري والمغطس . وثانيهما ، وهو التخييل الذي أقر فيه هانز برغبته في تزوج أمه وفي إنجاب عدد كبير من الاطفال منها ، ليس كل شأنه ان يستنفد مضمون عقد هانز اللاشعورية التي طفت الى السطح لدى مرآه الحصان يقع فولدت الحصر : بل صحح ايضاً ما لم يكن مقبولاً على الاطلاق في منظومة الافكار تلك ، إذ بدلاً من ان يقتل

---

(٢٧) ثمة مجموعة من الرسوم للرسام البارع ث . ث . هايني ، في عدد من مجلة SIMPLICISSIMUS ، تمثل قصة طفل بائع اللحومات الذي وقع في آلة صنع النقانق والذي، في صورة قطعة صغيرة من النقانق، بكاه والداه وتلقى بركة الكنيسة وصعد الى السماء . وقد تبدو فكرة الفنان هذه للوهلة الاولى خارقة للمألوف ، غير ان حكاية لودي في تحليل هانز تتيح لنا أن نرجع تلك الفكرة الى مصدرها الطفلي .

هانز أباه جرده من قدرته على الاذى بأن منحه ترقية الزواج من الجدة . وبهذا التخييل انتهى المرض والتحليل على حد سواء نهاية ملائمة .

* * *

في مسار تحليل حالة بعينها يتعذر الوصول الى انطباع واضح عن بنية العصاب وتطوره . فذلك يتطلب مجهوداً تركيبياً لا بد من بذله لاحقاً . وان حاولنا القيام بمثل هذا التركيب لرهاب صغيرنا هانز ، فسنجعل نقطة انطلاقنا وصف جبلَّته ورغباتـه الجنسية المهيمنـة والاحداث التي سبقت ميلاد اخته الصغيرة ، وذلك كل قدمناه في الصفحات السابقة من هذا التقرير .

لقد أدخل مقدم أخته على حياة هانز عناصر جديدة شتى لم تدع له منذئذ ان يذوق طعماً للراحة . فأولاً ، درجة معينة من الحرمان : في البداية انفصال مؤقت عن أمه ، وفيما بعد نقصان دائم في مقدار ما كانت تبذله له من العناية والاهتمام اللذين بات متوجباً عليه أن يعتاد على تشاطرهما مع أخته . وثانياً ، إحياء للملذات التي نعم بها حين كان يتلقى العناية وهو طفل صغير ، وقد حدث هذا الاحياء بدالّة كل ما كان يراه مما تعمله أمه لأخته الصغيرة . وكانت نتيجة هذين التأثيرين ازدياد شدة حاجاته الايروسية التي بدأت في الوقت نفسه لا تحظى بإشباع كافٍ . وقد اعتاض هانز عن الخسارة التي سببها له مقدم اخته بتخيله ان له هو نفسه اطفالاً ، وقد وجدت حاجته الى المحبة ، ما دام مقيماً في غموندن ـ في زيارته الثانية لها ـ حيث كان في استطاعته فعلاً ان يلعب مع هؤلاء الاطفال ، وجدت منصرفاً كافياً لها . لكنه لما رجع الى فيينا صار من جديد وحيداً ، فارتد بكل مطالبه نحو أمه ، ولم يكن امامه مناص من أن يعاني من حرمان جديد ، إذ نفي من غرفة والديه عند بلوغه الرابعة والنصف من العمر. وقابليته للاثارة الايروسية عبرت عندئذ عن نفسها ـ وقد اشتدت ـ في تخييلات استحضر بها في وحدته رفاقه في اللعب في الصيف المنصرم ، وفي إشباعات ايروسية ذاتية

منتظمة عن طريق التهييج الاستمنائي لاعضائه التناسلية .

ثالثاً ، ان ميلاد اخته قد حفز هانز على بذل مجهود عقلي ما كان له ، من جهة اولى ، ان يتأدى به الى نتيجة مثمرة ، وكان من المحتم من الجهة الثانية ان يجره الى صراعات وجدانية . والمعضلة الكبيرة التي انطرحت عليه عندئذ هي التالية : **من أين يجيء الاطفال** ؟ وربما كانت هذه هي المعضلة الأولى التي يستنفر حلها قوى الطفل العقلية ، والتي لا يعدو لغز ابي الهول لمدينة طيبة ان يكون في اغلب الظن صيغة محرفة منها . وقد نبذ هانز التفسير الذي قدم اليه من ان اللقلق هو الذي أتى بآنا . وبالفعل ، كان قد لاحظ أن أمه انتفخ بطنها في اثناء الشهور التي سبقت ولادة الطفلة الصغيرة ، وانها رقدت بعد ذلك في الفراش ، وراحت تئن في اثناء الولادة ، ثم عادت نحيفة كما كانت لما تركت الفراش . وعليه فقد استنتج ان آنا كانت في داخل جسم أمها ثم خرجت منه كلومف. وكان في مقدور هانز ان يتصور عملية الانجاب على انها عملية لاذة بمجرد ان يربطها بأحاسيسه اللاذة الأولى عند التغوط ؛ ومن ثم كان لديه دافع مزدوج ليرغب في ان يكون له هو الآخر اطفال : أولاً للذة إنجابهم ، وثانياً للاعتناء بهم (وهذا بمقتضى نوع من اللذة « الثأرية ») . ولم يكن في هذا كله شيء يمكن ان يزج بهانز في شكوك او صراعات .

بيد أن ثمة شيئاً آخر بعد كان لا يمكن إلا أن يبلبل هانز . فالاب لا بد ان يكون لعب دوراً ما في ولادة آنا الصغيرة ، ما دام يصرح ان هانز وآنا هما طفلاه . ولكن ليس الأب هو الذي ولدهما ، وانما بكل تأكيد الأم ؛ وهذا الأب كان يضايق هانز في علاقته بأمه . ففي وجوده لا يستطيع هانز ان ينام مع أمه، وحين ترغب هذه الاخيرة في أخذ هانز الى فراشها يطفق الأب يصيح . ولقد ثبت لهانز بالتجربة كيف ان كل شيء يسير على ما يرام في غياب والده ، ومن ثم كانت رغبته في ان يموت والده رغبة مبررة تماماً . وعندئذ تعززت عدائية هانز . فقد كان ابوه روى له بالفعل اكذوبة اللقلق ، ومن ثم جعل من المستحيل عليه ان يطلب

ايضاحات بصدد هذا الموضوع . فهو لم يمنع فقط هانز من النوم في الفراش مع أمه ، بل حرمه ايضاً من المعرفة التي كان يتعطش اليها . وبذلك يكون قد وضع هانز من كلا الناحيتين في وضع مجحف ، وهذا بالبداهة لهدف منفعته الشخصية .

غير أن هذا الاب ، الذي ما كان هانز يستطيع أن يمنع نفسه من ان يكرهه كغريم ، كان هو عينه الذي أحبه هانز دائماً والذي يتوجب عليه ان يستمر في حبه ؛ فهذا الاب قدوته ، وقد كان رفيقه الأول في اللعب ، وتعهده بالعناية من سنواته الأولى : وهذا ما ولَّد الصراع الوجداني الأول لديه، بدون ان يتمكن من ان يعثر له على حل في بادىء الأمر . وبالتوافق مع التطور الذي مرت به طبيعة هانز ، كان لا بد للحب من ان تكون له في البداية اليد الطولى ومن أن يكبح الكراهية، بدون أن يقضي عليها مع ذلك ، لأن هذه الكراهية كانت تتلقى بلا انقطاع مدداً جديداً بفعل حب هانز لأمه .

لكن الأب ما كان يعرف فقط من أين يأتي الاطفال ، بل كان ايضاً يفعل شيئاً ما لكي يأتوا ، شيئاً ما كان لهانز ان يرهص به إلا إرهاصاً غائماً . ولا بد ان « الفرفورة » كانت لها صلة بهذا الشيء ، لأن « فرفورة » هانز كانت تهتاج كلما فكر هانز بهذه الأمور ـ ولا بد ان تكون « فرفورة » كبيرة ، اكبر من « فرفورة » هانز . وان يكن هانز قد أعار هذه المشاعر الإرهاصية انتباهاً ، فلا بد أن يكون افترض ان ذلك الشيء هو فعل عنف تخضع له الأم ؛ وبالفعل ،كانت الحفزات التي يشعر بها تجيش في نفسه ميلاً الى تحطيم شيء ما ، أو الى الدخول عنوة الى مكان مقفل . ولكن على الرغم من ان الاحاسيس التي استشعرها في قضيبه وضعته على هذا النحو على الطريق الى افتراض وجود المهبل ، ما كان في وسعه مع ذلك أن يهتدي الى حل اللغز ، إذ لم يكن بحسب معرفته ثمة وجود لشيء يشابه ما يطلبه قضيبه ؛ بل على العكس من ذلك تماماً ، فقد كان اقتناعه بأن لأمه « فرفورة » مماثلة لتلك التي له يسد عليه الطريق

الى حل المعضلة . ومن ثم فإن محاولته حل المشكلة التالية : ما الذي ينبغي فعله لماما كيما تنجب اطفالاً ؟ غاصت في لاشعوره ، وبقيت الحفزتان الفاعلتان ، حفزته العدائية تجاه ابيه وحفزته الى محبة أمه سادياً ، معطلتين ، الأولى بسبب الحب المتعايش مع الكراهية ، والثانية بفعل الحيرة التي أوقعته فيها النظريات الجنسية الطفلية .

على هذا النحو وجدتني مضطراً ، بالاستناد الى نتائج التحليل ، الى ان أعيد بناء العقد والرغبات اللاشعورية التي نجم عن كبتها وإحيائها رهاب هانز الصغير . إنني أعرف أني أعزو على هذا النحو الى طفل في الرابعة أو الخامسة من العمر قدرات عقلية كبيرة ، لكني أسلس قيادي لما تكشف لنا مؤخراً ، ولا أرى من داعٍ لأن أتقيد بالاحكام المسبقة لجهلنا . وربما كان في مستطاعنا ان نستخدم خوف هانز من « الضجيج الذي يُحدث بالأقدام » لنسد بعض ثغرات اخرى في ملف أدلتنا . صحيح ان هانز صرح ان ذلك يذكره بالزمن الذي كان يلبط فيه بقدميه في كل اتجاه حينما كان ذووه يرغمونه على قطع لعبه ليذهب ويعمل « لومف » ، وهذا ما يقيم صلة بين هذا العنصر من العصاب وبين المشكلة التالية : هل أنجبت ماما اطفالاً لأن ذلك يطيب لها أم لأنها اكرهت عليه إكراهاً ؟ لكن لا يتراءى لي أن ذلك يعلل تعليلاً كاملاً « الضجيج الذي يُحدث بالاقدام » . والحق أن والد هانز لم يتمكن من تأييد ظني في ان الطفل راقب اتصالاً جنسياً بين والديه حين كان ينام في غرفتهما ، وفي أن ذكرى هذا المشهد عادت على هذا النحو الى التحرك في نفسه . فلنقنع اذن بما تيسر لنا كشفه .

من العسير ان نحدد ، في الموقف الذي كان فيه هانز والذي رسمنا لوحته ، تحت تأثير أي شيء حدث التغير ، فانقلبت الصبوة الليبيدوية عنده الى حصر . فمن أي جانب بدأ الكبت ؟ اننا لن نتمكن في اغلب الظن من البت في هذه المسائل قبل ان نجري مقارنة بين هذا التحليل وبين عدة تحاليل اخرى مشابهة . هل كان ما قلب الميزان عجز الطفل **العقلي** عن

حل المعضلة الصعبة ، معضلة إنجاب الأطفال ، وعن التغلب على الحفزات العدوانية التي يطلقها الاقتراب المبهم من الحل ، ام كان عجزه **البدني** ، كضرب من الحساسية الجبلّية المفرطة ، عن تحمل الاشباع الاستمنائي الممارس بانتظام (أي هل كان مجرد استمرار التهيج الجنسي بمثل هذه الدرجة العالية من الشدة قميناً بأن يؤدي لا محالة الى انقلاب الوجدان)؟ لست مستطيعاً غير أن اطرح هذه الاسئلة بدون ان أجيب عنها الى ان يتاح لخبرة أوسع نطاقاً ان تهبّ لمعونتنا .

ان اعتبارات متصلة بتسلسل الاحداث الزمني تمنعنا من أن نعلق اهمية اكبر مما ينبغي على العلة الظرفية لتفجر المرض لدى هانز ، إذ كانت علامات الخوف والتوجس قد ظهرت لديه قبل وقت طويل من رؤيته حصان الاومنيباس يقع في الشارع .

على ان العصاب ارتبط ارتباطاً مباشراً بهذه الحادثة العارضة واحتفظ منها بأثر تجلى في رفع الحصان الى مرتبة « موضوع الحصر » . فالانطباع الذي تلقاه هانز لما رأى الحصان يسقط لم يكن ينطوي بحد ذاته على أية « قوة راضة » ؛ والحادث الذي وقع عليه نظر هانز مصادفة واتفاقاً لم يكتسب فاعليته الإمراضية الكبيرة إلا بفضل ما كان للحصان من قبل من أهمية عند هانز كموضوع للاهتمام والإيثار ، وإلا بنتيجة الارتباط مع ذلك الحادث الآخر الاكثر اتساماً بالسمة الرضية الذي كان وقع في غموندن حينما سقط فريتزل وهو يلعب لعبة الحصان ، مما فتح طريق التداعي الذي تأدى بهانز بيسر وسهولة من فريتزل الى الأب . وأرجح الظن أنه حتى هذه الارتباطات كلها ما كانت لتكفي لولا أن الانطباع ذاته تكشف ايضاً ، بفضل مرونة علاقات التداعي والتباسها ، عن أنه قمين بأن يوقظ ثانية العقد التي كانت كامنة متربصة في لاشعور هانز ، أي عقدة ولادة أمه الحامل . وبدءاً من تلك اللحظة غدا الطريق مفتوحاً امام عودة المكبوت ، وقد تمت هذه العودة على النحو التالي : **ان المادة الإمراضية قد أعيد تشكيلها وجرت**

إزاحتها إلى عقدة الحصان ، وحولت جميع الوجدانات المصاحبة لها على حد سواء إلى حصر .

ومما تجدر ملاحظته ان المضمون الفكروي للرهاب على نحو ما تجلى عليه آنئذ كان لا بد أن يخضع بعد لسيرورة تحريف وإبدال اخرى قبل أن يتمكن من بلوغ الشعور . وكان أول تعبير لفظي عن الحصر استخدمه هانز هو : « الحصان سيعضني » ؛ والحال ان هذا التعبير كان منبثقاً عن مشهد آخر وقع في غموندن وكان ذا صلة من جهة أولى بأمنيات هانز العدائية ضد أبيه ، وذا تذكرة من الجهة الثانية بالتحذير من الاونانية . وهنا تجلى مفعول تأثير محوِّل للانتباه ، ربما كان مصدره الوالدين؛ فأنا لست متأكداً أن التقارير عن هانز كانت تدوَّن عندئذ بدقة كافية لتتيح لنا أن نقطع في ما اذا كان عبر عن حصره على ذلك النحو **قبل أو فقط بعد** أن قرعته أمه بخصوص استمنائه . والحق أني أميل الى الاعتقاد بأن ذلك كان بعد ، وإن تناقض ذلك مع ما جاء في التقرير عن تاريخ المرض . ومهما يكن من أمر ، فمن الواضح أن عقدة هانز العدائية تجاه ابيه تحجب باستمرار عقدته الليبيدوية المتعلقة بأمه . كذلك فقد كانت هي أول عقدة جرى كشفها وتصفيتها في التحليل .

ربما كان يمكن لنا في حالات مرضية اخرى ان نقول اكثر بكثير مما قلناه بصدد بنية العصاب وتطوره وتوسع نطاقه . لكن تاريخ مرض صغيرنا هانز قصير جداً ، فما كاد يبدأ حتى حل محله تاريخ علاجه ؛ وعلى الرغم من ان الرهاب بدا في اثناء العلاج وكأنه يوالي تطوره ويمتد الى مواضيع جديدة ويفرض شروطاً جديدة ، فإن والد هانز ، الذي كان يتولى بنفسه معالجة العصاب ، كان لديه بطبيعة الحال قدر كافٍ من الرؤية الصحيحة للاشياء ليدرك ان الأمر يتعلق بمجرد ظهور لمادة موجودة من قبل ، وليس بمنتجات جديدة يمكن إلقاء التبعة فيها على عاتق العلاج . والحق أنه ليس لنا ان نعوِّل دوماً في حالات أخرى على مثل هذا الفهم الثاقب .

قبل ان يتسنى لي ان اعتبر هذه الصورة التركيبية بحكم المكتملة ، يتعين علي ان أرى الى الحالة من زاوية اخرى . وبذلك نجدنا وقد انتقلنا الى لب الصعوبات التي تعترض سبيل فهمنا للحالات العصابية . فقد رأينا كيف وقع مريضنا الصغير فريسة موجة عارمة من الكبت طالت بوجه التحديد مقوماته الجنسية الغالبة[٢٨] . فإذا به يقلع عن الاونانية ، ويصد بقرف عن كل ما من شأنه ان يذكره بالبراز وباختلاس النظر الى اشخاص آخرين وهم يقضون حاجاتهم الطبيعية . لكن ليست هذه المقومات هي التي ابتعثها السبب المباشر لمرضه (رؤيته الحصان يقع) ، وليست هي التي زودته بمادة أعراضه ، أي مضمون الرهاب .

هذا ما يتيح لنا ان نجري هنا تمييزاً جذرياً. فأرجح الظن اننا سنتوصل الى تفهم أعمق للحالة المرضية بتوجهنا الى تلك المقومات الأخرى التي تستجيب للشرطين الاخيرين اللذين سبق ذكرهما . تلك هي الصبوات التي كان هانز كبحها والتي ما امكن لها قط ، بقدر ما نستطيع ان نرى، ان تفصح عن نفسها بلا كف : مشاعر عداء وغيرة تجاه أبيه ، حفزات سادية ضد أمه كاستجابة لإرهاصه بالجماع . ولعل هذه الكبوحات المبكرة شرطت الاستعداد المسبق للعصاب اللاحق . ولم تجد هذه النوازع العدوانية أي مخرج لها لدى هانز؛ وحين شاءت ، وقد تعززت بعد فترة من الحرمان والتهيج الجنسي المتزايد ، ان تشق لنفسها طريقاً ، نشبت عندئذ تلك المعركة التي نطلق عليها اسم « الرهاب » . وفي مجرى هذا الرهاب تمكن جانب من التمثلات المكبوتة ، في شكل محرف ومسقط على عقدة أخرى ، من ان يشق لنفسه طريقاً الى الشعور بوصفه مضموناً للرهاب . لكن لا مجال للشك في ان هذا النجاح كان

(٢٨) بل ان ابا هانز لاحظ ظهور قدر من الإسماء لدى هانز في آن واحد مع ذلك الكبت . فمنذ مستهل تمخض حالة القلق عنده ، أبدى هانز عن اهتمام متزايد بالموسيقى وطفقت موهبته الموسيقية الموروثة تنمو وتتطور .

مزرياً . فالنصر بقي معقوداً للكبت **الذي اهتبل الفرصة ليبسط سلطانه على مقومات اخرى غير تلك التي كانت تمردت** . وهذا لا يغير شيئاً ، مع ذلك ، في واقع ان جوهر مرض هانز كان يتوقف بتمامه على طبيعة المقومات الغريزية التي كان يتعين نبذها .

لقد كان مضمون الرهاب من طبيعة تحتم ان ينجم عنه تقييد كبير لحرية الحركة : وذلك كان ايضاً الهدف منه . وعلى هذا فقد كان الرهاب عبارة عن رد فعل قوي على الحفزات الحركة المبهمة الموجهة بوجه خاص ضد الام . وكان الحصان قد مثّل على الدوام في نظر هانز لذة الحركة (كان يقول وهو يثب في كل اتجاه : « أنا حصان صغير ») . لكن بما ان لذة الحركة تتضمن حفزة الجماع ، فقد فرض العصاب على لذة الحركة قيوداً ، ومن ثم أوكل الى الحصان ان يؤدي دور شعار الرعب . وقد يبدو لنا على هذا النحو وكأنه لم يبق للغرائز المكبوتة شيء تقوم به في العصاب غير شرف تزويد الحصر بالذرائع والتعلات لظهوره في الشعور . لكن مهما يكن باهراً انتصار القوى المناوئة للجنسية في الرهاب،فإن من طبيعة هذا المرض بالذات ، وهي كونه عبارة عن تسوية وحل توفيقي ، ان تحتم على المكبوت ألا يقف عند هذه الحدود . فرهاب الحصان هو بالنسبة الى هانز ، في نهاية المطاف ، عقبة تحول دون خروجه الى الشارع ويمكن ان يتخذها ذريعة للبقاء في البيت بجانب أمه الحبيبة . وهكذا بلغت محبته لأمه غاياتها مظفرة؛ فالعاشق الصغير يتشبث ، من خلال الرهاب ذاته ، بموضوع حبه ، وان تكن قد اتخذت اجراءات بطبيعة الحال لشل قدرته على الاذى . والحق أن الطابع الخاص للاصابة العصابية انما يتجلى في هذه النتيجة المزدوجة تحديداً .

لقد أفصح ألفريد آدلر مؤخراً ، في بحث موح للغاية[29] ، عن

(٢٩) **غريزة العدوان في الحياة وفي العصاب** ، ١٩٠٨ . ومن هذا البحث كنت اقتبست آنفاً مصطلح « تشابك الغرائز » .

رأي مؤداه ان الحصر يتولد عن كبح ما يسميه « غريزة العدوان » ؛ وقد عزا إلى هذه الغريزة ، بعملية تركيبية واسعة النطاق ، الدور الرئيسي في كل ما يحدث للبشر ، سواء « أفي الحياة ام في العصاب » . وقد يبدو ان النتيجة التي انتهينا اليها من أن الحصر ، في حالة الرهاب هذه ، قابل للتفسير بكبت تلك النوازع العدوانية (العدائية تجاه الأب والسادية تجاه الأم) ، تأتي مصداقاً ساطعاً لوجهة النظر التي أخذ بها آدلر . غير أنني ما استطعت قط مع ذلك ان أتقبل هذا الرأي ، وانا أعتبره تعميماً مضللاً . ولست مستطيعاً حمل نفسي على التسليم بوجود غريزة عدوان خاصة الى جانب غريزة البقاء والغريزة الجنسية المعروفتين من قبل ، وعلى قدم المساواة معهما[30] . ويخيل إلي أن آدلر حصر عن خطأ بغريزة خاصة واحدة مرفوعة إلى منزلة الاقنوم ما هو سمة عامة وضرورية للدوافع الغريزية كافة ، وعلى وجه التحديد طابعها « الدافعي » ، الحفزي، الذي يجوز لنا وصفه بأنه قدرتها على إطلاق الطاقة الحركية. ولو سلمنا بوجهة نظر آدلر تلك، فلن يبقى من الغرائز الأخرى شيء سوى صلتها بهدف ما بعد أن تكون «غريزة العدوان» قطعت روابطها بوسائل بلوغ هذا الهدف.وعلى الرغم من كل ما يحيط بنظريتنا في الغرائز من تشكك وإبهام ، فإني أؤثر التمسك مؤقتاً بتصورنا الراهن ، الذي يترك لكل غريزة قدرتها الخاصة بها على أن

(٣٠) (ملحوظة اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ كتب هذا الكلام في زمن كان يبدو فيه آدلر وكأنه ما يزال على ارض التحليل النفسي ، وذلك قبل ان يرفع لواء « الاحتجاج الرجولي » وينكر وجود الكبت . وقد وجدتني منذئذ مضطراً انا الآخر إلى المصادرة على وجود « غريزة العدوان » ، لكن هذه الغريزة عندي هي غيرها عند آدلر . وإني لأحبذ أن أسميها « غريزة التدمير » او « غريزة الموت » (انظر **ما وراء مبدأ اللذة** ، وكذلك **الانا والهذا**) . والتعارض بين هذه الغريزة والغرائز الليبيـدويـة يتجلى في قطبية الحب والكره المعروفة . وهكذا فإن خلافي مع وجهة نظر آدلر ، التي تصادر خاصية عامة للغرائز قاطبة لصالح واحدة منها ، لم يطرأ عليه تبدل .

تصير عدوانية ، كما أني أميل إلى ان أتعرف في الغريزتين اللتين كبتتا لدى هانز مقوِّمين معروفين منذ زمن بعيد من مقومات الليبيدو الجنسي .

ـ ٣ ـ

سأشرع الآن في ما أرجو ان يكون نقاشاً مقتضباً حول مدى ما يمكن ان يقدمه لنا رهاب الصغير هانز من فائدة عامة ومهمة بخصوص حياة الاطفال وتربيتهم . لكن لا بد لي قبل ذلك من الرد على الاعتراض الذي طال إرجاء الرد عليه والذي يزعم ان هانز مريض عصبي ، « منحط » ، ذو وراثة فاسدة ، وما هو بطفل عادي يمكن أن يتأدى بنا إلى أطفال غيره . والحق إنه ليحز في نفسي منذ زمن طويل ان أفكر بالطريقة التي سينهال بها جميع المتشيعين لـ « الانسان العادي » على صغيرنا المسكين هانز بمجرد ان يعلموا أنه من الممكن بالفعل أن نعثر لديه على « عيب » وراثي . فأمه الجميلة كانت وقعت فريسة عصاب ناشيء عن صراع عانت منه وهي فتاة في مقتبل العمر . وقد امكنني يومئذ ان أسدي اليها بعض العون ، والى ذلك العهد ترجع بالفعل بداية علاقتي بوالدي هانز . ولن أجرؤ إلا بحياء ووجل على سوق بعض الاعتبارات لصالحه .

فبادىء ذي بدء لم يكن هانز « طفلاً منحطاً » بالمعنى المقصود من هذه الكلمة ، أي طفلاً قضت عليه وراثته بالعصاب . بل على العكس من ذلك ، فقد كان من الناحية البدنية قوي البنيان ، وكان رفيقاً مرحاً لطيفاً ، يقظ الذهن ، قادراً على إدخال السرور على الآخرين بالاضافة الى ابيه . ولا مجال للشك بطبيعة الحال في تبكيره الجنسي ، ولكننا نفتقر هنا ، كيما نكوِّن لأنفسنا حكماً دقيقاً ، إلى مادة كافية للمقارنة . فإنني أعرف مثلاً ، بموجب استقصاء جماعي أجري في امريكا ، ان اختيارات للموضوع ومشاعر حبية مبكرة الى هذا الحد ليست مما يندر لدى الصبيان ، ونحن نلاحظ الشيء نفسه فيما يتصل بطفولة العديدين من الرجال ممن صاروا يعرفون فيما بعد بـ « العظماء » . ومن ثم سأميل

الى الاعتقاد بأن التبكير الجنسي ذو صلة ـ قلما تغيب ـ بالتبكير العقلي ، واننا لنلتقيه بالتالي اكثر بكثير مما نتوقع لدى الأطفال الموهوبين حقاً .

وسألاحظ بعد ذلك في صالح هانز (إني أقر علناً بتحيزي) أنه ليس الطفل الوحيد الذي عانى في وقت أو آخر من طفولته من رهاب . فمثل هذه الامراض شائعة للغاية كما هو معروف ، حتى لدى الاطفال الذين لا تترك تربيتهم الصارمة مجالاً لأخذ مأخذ عليها . والاطفال المشار اليهم يغدون فيما بعد عصابيين بدرجة طفيفة أو قد يبقون أصحاء معافين . والأرهبة التي يعانون منها تُخرس وتكمم من كثرة الزجر في الحضانة ، لأنها مستعصية على العلاج وفي الوقت نفسه مزعجة للغاية بكل تأكيد . وبمر الشهور او السنوات تنحسر وتشفى ظاهرياً ؛ لكن ليس في وسع أحد ان يتنبأ بما يقتضيه مثل هذا « الشفاء » من تشويهات سيكولوجية وبما يستتبعه من تغيرات في الطباع . لكن متى تولينا بالعلاج التحليلي النفسي عصابياً راشداً لم يظهر مرضه ، على ما نفترض ، إلا في سن النضج ، اكتشفنا بصورة مطردة ان عصابه يرتبط بحصر طفلي وأنه في الواقع استمرار له ؛ فلكأن خيطاً متصلاً ولامنقطعاً من النشاط النفسي ، انطلق من صراعات الطفولة تلك ، بقي فيما بعد متشابكاً بكل نسيج حياته ، وهذا سواء أتشبث العرض الاول لهذه الصراعات بالبقاء أم زال تحت ضغط الظروف . أعتقد إذن أن صغيرنا هانز لم يمرض مرضاً أشد خطورة من كثيرين من الأطفال الآخرين ممن لا يوصمون بأنهم « منحطون » ؛ ولكن نظراً إلى أنه أنشىء بمعزل عن التخويف والترهيب ، وبأقصى ما يمكن من المراعاة وبأقل ما يمكن من الإكراه ، فقد اجترأ حصره على الظهور بجسارة غير مألوفة لدى الاطفال الآخرين . فالاحساس بالخطأ والخوف من العقاب أمران ما كان يعرفهما هانز ، وهذان الدافعان يسهمان ولا بد لدى غيره من الاطفال في « إنقاص » الحصر . ويخيل إلي اننا نشغل انفسنا اكثر مما ينبغي بالاعراض ونهتم أقل مما ينبغي بالمصادر التي تنشأ عنها . وعندما نربي

اطفالاً تكون كل بغيتنا ان يدعونا في سلام ، وألا نضطر إلى مواجهة مشكلات ، وبالاختصار ، نرمي إلى أن نجعل من طفلنا « طفلاً نموذجياً » بدون ان نتساءل هل هذه الطريقة في التصرف صالحة أو طالحة بالنسبة إلى الطفل . بوسعي إذن أن أتخيل أن اصابة هانز بذلك الرهاب عادت عليه بالنفع لأنها لفتت انتباه والديه الى الصعاب التي يتحتم على الطفل ان يواجهها حينما يتوجب عليه ، في مجرى تربيته ككائن متحضر ، أن يظهر على المقومات الغريزية الفطرية في طبيعته ، ولأن الاضطراب الذي عانى منه هانز حمل أباه على أن يهب لمعونته. وربما صار الآن لهانز ميزة على الأطفال الآخرين، بمعنى انه ما عاد يحمل في نفسه بذرة عقد مكبوتة ، تلك البذرة التي لا يمكن أبداً أن تخلو من اهمية بالنسبة الى حياة الطفل اللاحقة ، إذ تتسبب بدرجات مختلفة في تشويه الطبع ، إن لم نقل في توليد استعداد لعصاب لاحق . إني ميال إلى الاعتقاد بأن الأمر لهو كذلك ، لكني لا أعرف هل سيشاطرني رأيي هذا اشخاص آخرون ؛ بل لا اعـرف هل ستؤيد التجربة صحة ما أذهب إليه .

ينبغي الآن ان اطرح السؤال التالي : ما الضرر الذي لحق بهانز من جراء إخراجنا الى النور تلك العقد التي لا تكون مكبوتة لدى الأطفال فحسب ، بل مرهوبة أيضاً من والديهم ؟ هل حاول الصبي الصغير القيام بأدنى « اعتداء » على أمه ؟ هل استبدل النيات السيئة التي يضمرها تجاه أبيه بأفعال ؟ ذلك بالتأكيد ما كان سيخشاه العديد من الاطباء الذين يسيئون فهم طبيعة التحليل النفسي ويتصورون أننا نقوي الغرائز الخبيثة ونعززها إذ نجعلها شعورية . إذن فهؤلاء « الحكماء » يتصرفون بتماسك منطق حين يضرعون إلينا باسم السماء بألا نمس الأشياء الخطرة التي تختبىء خلف عصاب من الأعصبة . لكنهم اذ يفعلون ذلك ينسون انهم اطباء ، وتحذيراتهم تشبه إلى حد غريب تحذيرات دوغبري في مسرحية شكسبير **جعجعة بلا طحن** عندما ينصح الحارس بأن يتحاشى أي احتكاك باللصوص او الاشرار الذين قد

يلتقيهم بغتة : « لأنه كلما قل اتصالك بأمثال هؤلاء الاوباش كان ذلك أفضل لشرفك »(٣١) .

بل على العكس من ذلك ، فقد كانت النتائج الوحيدة للتحليل ان هانز أبل من مرضه ، وما عاد يخاف من الاحصنة ، وصارت علاقته بأبيه أدنى إلى الالفة ، على نحو ما روى الأب بلهجة لا تخلو من مرح . غير ان ما خسره الأب في مجال الاحترام عاد فكسبه في مجال الثقة . قال هانز : « اعتقدت أنك ما دمت عرفت بخصوص الحصان فلا بد أن تعرف هذا ايضاً » . والحق ان التحليل لا يلغي **نتيجة** الكبت ؛ فالغرائز التي قمعت في حينه تبقى مقموعة . على ان التحليل يصل إلى ما يصل إليه من نجاح بطريقة اخرى : إنه يستبدل الكبت ، وهو سيرورة آلية ومشتطة ، بعملية تحكم معتدلة وملائمة بالغرائز تتم بمساعدة أرفع الهيئات النفسية ؛ وبكلمة واحدة ، **يحل محل الكبت الادانة** . وهذا ما يأتينا فيما يبدو بالدليل الذي طال البحث عنه على ان للشعور وظيفة بيولوجية وعلى ان ميزة ذات شأن تتحقق بمجرد دخوله الى المسرح(٣٢) .

---

(٣١) لا أستطيع ان اكبح هنا سؤالاً حائراً . فمن اين يستمد أخصامي معلوماتهم الموثوقة الى هذا الحد عن الدور الذي تلعبه أو لا تلعبه الغرائز الجنسية المكبوتة في اتيولوجيا الاعصبة وعن طبيعة هذا الدور ، وذلك ما داموا يسدون افواه مرضاهم بمجرد ان يبدأ هؤلاء بالكلام عن عقدهم وفسائلها ؟ إن مصدر المعرفة الوحيد الذي يبقى متاحاً لهم في هذه الحال هو كتاباتي وكتابات أتباعي .

(٣٢) (ملحوظة اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ استخدم هنا كلمة « الشعور » بمعنى انصرفت عنه منذئذ ، وذلك للاشارة الى سيرورات التفكير العادية ، أي السيرورات التي تمتلك المقدرة على الوصول الى شعورنا . ونحن نعلم ايضاً ان مثل هذه السيرورات العقلية يمكن ان تتم ايضاً على مستوى **القبشعور** ، واننا لنحسن فعلاً فيما لو رأينا الى « شعوريتها » من وجهة نظر ظواهرية خالصة . وبديهي أنه ليس في نيتي ان أنقض بذلك الرأي الذي يتوقع ان « الشعورية » تؤدي هي الأخرى وظيفة بيولوجية ما . انظر **الانا والهذا** ، الفصل الاول ، وكذلك نقاش الوظيفة البيولوجية لـ « الشعور » في الصفحات الأخيرة من **تفسير الاحلام** .

لو كنت سيد الموقف الأوحد، لكنت اجترأت على تزويد الصبي الصغير بالإيضاح الوحيد الذي ضن به والده عليه. فقد كنت سأثبت له صحة إرهاصاته الغريزية بأن اكشف له عن وجود المهبل والجماع ، وكنت بذلك سأخفف إلى حد بعيد من ثقل الرسالة التي بقيت في نفسه بغير حل ، وكنت سأضع على هذا النحو حداً لسيل أسئلته . وإنني لعلى ثقة بأنه ما كان ليفقد ، بنتيجة هذه الايضاحات ، لا حبه لأمه ولا طبيعته الطفلية ، وبأنه كان سيفهم هو نفسه أن انشغاله بهذه المسائل المهمة ، بله الملحة ، لا بد في الوقت الحاضر ان يخمد ويتوقف ، إلى أن يقبض لرغبته في ان يكبر ان تتحقق ، غير ان التجربة التربوية لم تذهب إلى هذا الحد.

وأما أنه لا وجود لأي حد واضح بين « العصبيين » و « الاسوياء » ، من أطفال او راشدين على السواء ؛ وأما أن مفهوم « المرض » ذو قيمة عملية فقط وأنه لا يعدو ان يكون مسألة درجة أكثر أو درجة اقل ؛ وأما أن الاستعدادات القبْلية وصروف الحياة لا بد ان تتضافر كيما يتم تخطي العتبة التي من بعدها يبدأ المرض؛ وأما ان افراداً كثيرين ينتقلون باستمرار من جراء ذلك من صنف الاصحاء إلى صنف العصابيين، بينما يقوم عدد أقل بكثير من المرضى باجتياز الطريق نفسه بالاتجاه المعاكس ، فتلك كلها أشياء قيلت مراراً وتكراراً ولقيت من القبول ما يجعلني لا أنفرد برفع لوائها . ومن المحتمل جداً ، وهذا أقل ما يقال ، ان لتربية الطفل تأثيراً قوياً ، ان حسناً وان سيئاً ، على ذلك الاستعداد القبلي الذي تكلمنا عنه للتو والذي هو واحد من عوامل العصاب ؛ ولكن إلامَ ينبغي ان تهدف التربية وفيمَ ينبغي ان تتدخل ، فذلك هو ما لا يزال عسيراً أشد العسر الاجابة عنه . والى اليوم لم تتخذ التربية لنفسها من هدف غير السيطرة على الغرائز او بالأحرى قمعها ؛ ولم تأتِ النتيجة بحال من الأحوال مُرضية ؛ وحيثما قيِّض لهذه الطريقة ان تحقق نجاحاً لم يكن ذلك الا لصالح حفنة من الاشخاص المحظوظين

ممن لم يجدوا انفسهم مطالبين بقمع غرائزهم . كذلك لم يستقصِ أحد عن أي السبل ولقاء أي تضحيات تم انجاز هذا القمع للغرائز المشاغبة. أما لو اننا استبدلنا هذه المهمة بأخرى ، ترمي الى ان يقتدر الفرد على تمثل الحضارة وعلى أداء دور مفيد اجتماعياً ، بدون أن يتطلب منه ذلك إلا أضأل تضحية ممكنة بفاعليته ، فعندئذ يمكن للأضواء التي امدنا بها التحليل النفسي عن منشأ العقد الإمراضية وعن نواة كل عصاب أن تطمح في ان يرى فيها المربون هداية لهم لا تقدر بثمن في المسلك الواجب الاخذ به تجاه الاطفال. فما النتائج العملية التي يمكن ان تترتب على ذلك، وإلى أي حد يمكن للتجربة أن تبرر وضع هذه النتائج موضع التطبيق ضمن نطاق نظامنا الاجتماعي الراهن ؟ إني أدع هذه الأسئلة لحكام آخرين يدرسونها ويبتون فيها .

لا استطيع ان اطوي صفحة رهاب مريضنا الصغير قبل ان أفصح عن فكرة تسبغ في نظري على هذا التحليل (الذي أفضى الى الشفاء) قيمة خاصة . فهو لم يفدني ، بحصر معنى الكلمة ، شيئاً جديداً ، شيئاً لم اكن قادراً من قبل على ان أحدس به ـ وإن في الغالب في صورة أقل تحدداً وأقل مباشرة ـ من خلال تحليل مرضى آخرين ومعالجتهم في سن النضج . لكن اعصبة هؤلاء المرضى الآخرين كان يمكن في كل حالة ان تُربط بتلك العقد الطفلية عينها التي اكتشفناها خلف رهاب هانز . وعليه ، إني أميل إلى ان أعزو الى هذا الرهاب الطفلي اهمية خاصة جداً باعتباره نمطاً وأنموذجاً ، تماماً كما لو أن كثرة ظاهرات الكبت العصابية ووفرة المادة الإمراضية لا تمنعان ان تكون هذه الظاهرات وهذه المادة نابعة من عدد ضئيل للغاية من السيرورات التي تفعل فعلها على الدوام في العقد عينها ، بمضمونها الفكري عينه .

(٤)
تذييل (١٩٢٢)

منذ بضعة أشهر ـ في ربيع ١٩٢٢ ـ حضر إلي شاب وقدم لي نفسه على أنه « هانز الصغير » الذي كان عصابه الطفلي موضوع البحث الذي نشرته عام ١٩٠٩ . وقد سرني جداً أن ألتقيه ثانية ، إذ كان بعد زهاء عامين من انتهاء تحليله قد غاب عن ناظري ، فما عدت أعرف عن أحواله شيئاً منذ اكثر من عشر سنين . وكان نشر هذا التحليل الأول لطفل قد أثار انفعالاً كثيراً واستنكاراً اكثر ؛ وقد تنبأ بعضهم بمستقبل كالح مظلم لهذا الصبي الصغير المسكين الذي انتهكت براءته وهو غض العود فسقط ضحية تحليل نفسي .

لكن ما من شيء من هذه المخاوف قد تحقق . فهانز الصغير بات الآن شاباً جميلاً في التاسعة عشرة من العمر . وقد صرح لي بأنه في أتم عافية . لا يشكو من أي ضيق أو من أي كف . فهو ما اجتاز طور البلوغ بدون ان ينوبه منه ضير فحسب ، بل تحمل ايضاً ثابت الجنان محنة من أقسى المحن في حياته العاطفية . فقد وقع الطلاق بين والديه ، وارتبط كل منهما بزواج جديد . وهو من ثم يعيش بمفرده ، ولكنه على صلة طيبة بكل من والديه ، ويؤسفه فقط أن تفكك الأسرة قد فصله عن اخته الصغرى التي كان شديد التعلق بها .

ان من الاشياء التي اخبرني بها هانز شيئاً بدا لي يبعث على العجب الشديد . وعليه ، لن أجازف بتقديم أي تفسير له . فقد قال لي إنه حين أقبل على قراءة تاريخ مرضه بدا له كل شيء غريباً ؛ فهو لم يتعرف نفسه فيه ، وما استطاع ان يتذكر من الأمر شيئاً ؛ وفقط عندما وصل في قراءته الى الرحلة الى غموندن استيقظ فيه بصيص باهت جداً من الذكرى : فربما جاز أنه هو الذي يدور عنه الكلام . وهكذا لا يكون التحليل قد صان الحدث من النساية ، بل وقع هو نفسه ضحيتها . وهذا ما يحدث احياناً في اثناء النوم لمن هو متآلف مع التحليل النفسي . فقد يوقظه حلم ، فيصمم على تحليله حالاً ، ثم يستغرق في النوم ثانية وهو راض عن نتيجة جهوده . ولكن في صباح اليوم التالي يكون الحلم وتحليله قد طوتهما يد النسيان .

الفهرس

٤٠٠٠ / ٨٤ / ٩٧٦